سلسلة

قواعد وفنون التعامل مع الآخرين

(٢)

الكنز الذي لا يكلّف درهماً

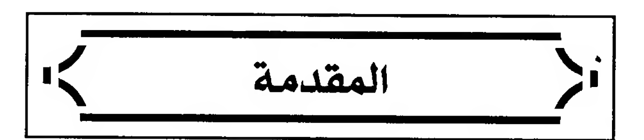
(عشرون قاعدة في فنون التعامل مع الآخرين)

د. علي الحمادي

دار ابن حزم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات: ١٣)



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد...

الإنسان اجتماعي بطبعه، يحب تكوين العلاقات وبناء الصداقات. والفطرة السليمة تمج الانعزال التام، وتستهجن الانطواء، وترفض الانقطاع عن الآخرين. والملاحظ أن الفرد مهما كان انطوائياً فإنه يسعى لتكوين علاقات مع الآخرين وإن كانت محدودة، ويصعب، بل ربما يستحيل، عليه الانكفاء على الذات والاستغناء عن الآخرين. ولقد أشارت بعض الدراسات إلى أن المدير يقضي ٨٠٪ من وقته في الاتصال والتعامل مع الآخرين[١].

إن الله تعالى قرر مبدأ التعامل بين الناس، وجعله ضرورة بشرية وسنة كونية، بل بيّن في كتابه الكريم أن من أسرار خلق

---

(١) أسماء السيد إبراهيم، الاتصالات الإدارية، ورقة علمية مقدمة لبرنامج مهارات الإشراف والمتابعة الفعالة، معهد التنمية الإدارية، دبي، ١٠ نوفمبر ١٩٩١، ص ٢.

الإنسان وتصنيف البشر إلى أمم وشعوب هو أن يتحقق الاتصال والتعارف بينهم، لذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[١].

إن العلاقة التي تربط الناس بعضهم ببعض لا تقوم على رابطة الدم فحسب، بل إن هناك روابط أخرى تجمع الناس وتؤلف بينهم وترفع من مستوى وحجم تعاملهم، فهناك (مثلاً) رابطة الفكرة والمبدأ، ورابطة العمل والوظيفة، ورابطة الصداقة والصحبة، ورابطة الجنس والعرق، والرابطة التجارية والاقتصادية... إلخ. وتعتبر رابطة العقيدة هي أجلّ وأسمى هذه الروابط، بل لا نبالغ إذا قلنا أنها تفوق رابطة الدم والنسب، لذا يقول الشاعر:

إن يختلف ماء الغمام فماؤنا
عذب تحدر من غمامٍ واحدِ
أو يفترق نسب يؤلف بيننا
دين أقمناه مقام الوالدِ

ويقول أبو تمام:

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم
وبلوت ما وصفوا من الأسباب

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

فـإذا الـقـرابـة لا تـقـرِّب قـاطـعـاً
وإذا الـمـودة أقـرب الأنـسـاب

إن التعامل مع الآخرين مهارة لا يحسنها كثير من الناس، فرب كلمة طائشة تخرج من الفم تفسد صفاء العلاقة بين أخوين متحابين، وربما يصل الحال إلى أكثر من ذلك بكثير. لذا ينبغي أن يكون الإنسان على حذر ويقظة دائمتين عند تعامله مع الآخرين، وإلا فربما يقع في ما لا يحمد عقباه.

إن هذا الموضوع من أكثر الموضوعات أهمية وصعوبة في نفس الوقت لأنه يتعامل مع هذا الكائن البشري المعقد.

ولقد حاولت في هذه الدراسة المتواضعة أن أتناول بعض الفنون والأساليب والقواعد التي ينبغي للإنسان أن ينتبه لها كي يستطيع أن يكسب مودة الآخرين، ويقي نفسه مصارع السوء الناتجة عن التعامل غير الموفق مع الناس.

ولا أزعم أنني أتيت بما لم يأت به الأولون، كما لا أزعم أن هذه الدراسة هي دراسة جامعة مانعة، ولكنها محاولة أرجو أن تكون موفقة، وأن ينتفع بها المسلمون، كما أرجو أن يرزقنا الله الإخلاص فيها، وأن يكتب لنا الأجر والثواب.

أبو عبد الله
علي الحمادي

١ اقبل معاذير من يأتيك معتذراً

وهي قاعدة مرتبطة بقاعدة العفو والصفح، ولكن لها خصوصيتها التي جعلت من المستحسن إفرادها كقاعدة من قواعد التعامل مع الناس. وهذه الخصوصية هي أن يطلب المخطىء العفو، ويرجو ممن أساء إليه الصفح، ويقدم اعتذاره وانكساره واعترافه بزلته، وربما يتعهد بعدم العودة إليها. أما العفو فيمكن أن يكون دون أن يطلب المخطىء الصفح ممن أساء إليه.

إن قبول اعتذار المعتذر خلق كريم يدل على فضل صاحبه وعلو شأنه، ولا يليق بالمسلم أن يرد هذا الاعتذار ويرفض ذلك الانكسار، لا سيما إذا جاءه المعتذر إلى بيته أو مجلسه أو إلى مقر عمله أو شفع له بعض الكرام من أهل العلم والدين والمروءة والوجاهة وكبر السن.

إن أصعب شيء على نفوس الناس أن يتوقعوا الخير أو يرجوه من إنسان ثم يفاجئهم بخلاف ذلك، فتنكسر قلوبهم، وتسود الدنيا أمامهم. ولقد اعتاد الناس أن يصفوا من يرد اعتذار المعتذر بالنذالة والخسة واللؤم وسوء الخلق، وغالباً ما

يحجمون عن التعامل معه، ويصرمون علاقتهم به.

لقد ختم الإمام أحمدِ بن حنبل رحمه الله حياته بالعفو عن الجلاد الذي ألهب بالسياط ظهره، وذلك عندما سمع الناس صائحاً ينادي خارج المنزل ويقول: يا أحمد، يا أحمد، فأوسعوا له حين استدعا الإمام أحمد، فإذا هو شيخ كبير ينشج نشيج النساء في لوعة وحرقة ويقول: لقد كنت ممن قام بتعذيبك في عهد المعتصم وإني لأرجو المعذرة. فيهز الموقف الإمام أحمد، وينسيه غمرات الموت، فيلتفت إلى الشيخ مخففاً عنه مستغفراً له عما اقترفت يداه، وهنا سأله ابنه عمن آذاه، ولماذا يستغفر لهم، فقال الإمام أحمد: يا بني «وليعفوا وليصفحوا» ماذا ينفعك أن يعذب أخوك بسببك؟ وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فإذا كانت القيامة، وجثت الأمم بين يدي الله رب العالمين، نودوا: ليقم من كان أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا، وإني لأرجو أن أكون واحداً منهم[١].

وقيل للمهلب بن أبي صفرة: ما تقول في العفو والعقوبة؟ قال: هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت.

وأنشد ثعلب فقال:

---

(١) عبد الله العوضي، في رحاب الإمام أحمد، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد
بكفيك في أدباره متعلقاً
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة
إذا زلها أوشكتما أن تفرقا

وروي أن الإمام الشافعي قال: «من استُغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضي فلم يرض فهو شيطان»[1].

وقال بعض أهل العلم: «الكريم من أوسع المغفرة إذا ضاقت بالذنب المعذرة».

وقال آخر: «شفيع المذنب إقراره، وتوبته اعتذاره».

ويقول الشاعر:

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً
إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره
وقد أجلك من يعصيك مستترا

وقال بعض البلغاء: «من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته، ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته». وقال بعض الحكماء: «من عاشر إخوانه بالمسامحة دامت له مودتهم».

وأكرم من قبول اعتذار المعتذر أن تعفو عنه وتصفح إذا

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٦٨.

جاءك معتذراً دون أن تلجئه إلى مزيد من الاعتذار أو تضطره إلى الكذب فيه حتى يرضيك، لذا يقول الشاعر:

العذر يلحقه التحريف والكذب
وليس في غير ما يرضيك لي أرب
وقد أسأتُ فبالنُّعمىٰ التي سلفت
إلا مننت بعفو ما له سبب

ولكن بالرغم من ضرورة الصفح وقبول اعتذار المعتذر، إلا أنه لا ينبغي أن يكون ذلك في كل الأحوال، ومع كل الناس، إذ يمكن للمرء أحياناً أن لا يقبل الاعتذار وذلك إذا تيقن أن هذا القبول لا ينفع المعتذر ولا يؤدبه، أو إذا علم أن المعتذر يستخدم هذا الاعتذار من قبيل المراوغة والمخادعة والاستغفال والاستهبال. أما غير ذلك وفي غالب الأحوال والظروف، فإن الأولى بالمرء أن يسمو بنفسه فيقبل انكسار المنكسرين واعتذار المعتذرين.

٢ اخلع النظارة السوداء

بعض الناس يسرفون في التشاؤم وتضخيم السلبيات، ولا يتذكرون الإيجابيات والحسنات، فالدنيا عندهم دائماً مظلمة سوداء، فهم كالخفافيش لا يحسنون العيش إلا في الظلام. وتزداد المشكلة سوءاً عندما ينقلون مشاعرهم وقناعاتهم المظلمة إلى الآخرين، فيساهمون في تثبيطهم، ويكونون معول هدم وتيئيس لمن حولهم من الأفراد.

وقد حث الإسلام على التفاؤل وحذر من التطير والتشاؤم، فقال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الطيرة شرك، قالها ثلاثاً»[2].

وجاء في شرح السنة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير، وكان يحب الاسم الحسن»، والطيرة هي توقع الشر والمكروه، أما التفاؤل فهو ضدها وهو توقع الخير والاستبشار والأمل.

ويقول الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده ليفرجن الله عنكم ما ترون من الشدة، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إلى مفاتيح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[3].

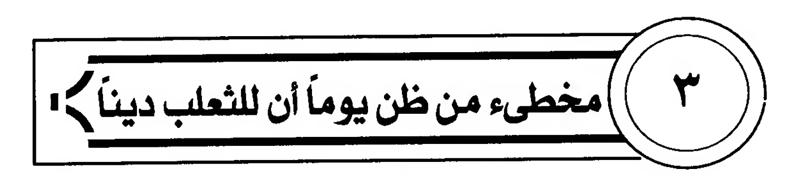
ويبشر الرسول ﷺ عدي بن حاتم بالمستقبل العظيم لهذا الدين فيقول له: (كما روى ابن هشام في سيرته): «لعلك يا عدي، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف،

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.
(٢) رواه أبو داود والترمذي.
(٣) البخاري ومسلم.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»، قال عدي: فأسلمت.

ومن المهم التنبيه في هذا المقام إلى أن تغليب التفاؤل على التشاؤم لا يعني أن يعيش الإنسان في الخيال أو أن يتجاهل أو يهمِّش كل السلبيات والعوائق والمشكلات، فإن ذلك إفراط في التفاؤل وهو مذموم ولا يؤدي بصاحبه إلا إلى الفشل والهلاك.



قد يتعرض الإنسان في تعامله مع الآخرين إلى من يمارس معه الخداع والكذب والمكائد والتمويه والتضليل، لذا فإن عليه أن يكون فطناً ذكياً سريع البديهة، وإن لم يكن كذلك فسوف يقع في شباك الخصم بسهولة ويسر، وربما يقدم كثيراً من التنازلات دون أن يحقق سوى قليل من المكاسب.

إن الذكاء وسرعة البديهة هي موهبة فطرية يهبها الله لمن يشاء، ولكن بالرغم من ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يكتسبها أو يمكن القول أنها موجودة لدى كثير من الناس إلا أنها ضامرة تحتاج إلى صقل وإظهار.

ولعل مما ينمي الذكاء وسرعة البديهة: الاستعانة بالله، والعلم، ومرافقة الأذكياء، والاطلاع على مواقفهم، والتأمل والتفكير، وعدم التسرع، والتزام الحذر، ومعرفة ألاعيب وحيل الآخرين، وحسن الإعداد والتخطيط... إلخ.

ونود في هذا المقام أن نورد شيئاً من مواقف الأذكياء وفطنتهم، فمن المواقف التي تدل على الذكاء والفطنة ما روي

عن الغلام الذي لقى الشاعر أبا العلاء المعري، فقال الغلام لأبي العلاء المعري: من أنت يا شيخ؟ فقال أبو العلاء: أنا شاعركم أبو العلاء، فقال الغلام: أنت القائل في شعرك:

وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

فقال أبو العلاء: نعم، فقال الغلام: يا عماه، إن الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً للهجاء فهل لك أن تزيد حرفاً واحداً؟ فصمت أبو العلاء وأفحم ولم يستطع الإجابة.

وسأل رجل غلاماً صغيراً ذكياً فقال له: من الذي قْبل الله؟ فأجابه الغلام: عد لي من الواحد إلى العشرة لأجيبك، فلما ابتدأ الرجل يعد، قال له الغلام: ماذا قبل الواحد؟ فما استطاع الرجل أن يجيب، فأجابه الغلام الذكي: قل الله الأول والآخر، ليس قبله شيء ولا بعده شيء، فسر الرجل من ذكائه ومدحه على تقواه(١).

ويروىٰ أن نزاعاً وقع بين السنة والشيعة ببغداد في المفاضلة بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، فرضي الطرفان بما يجيبه الإمام ابن الجوزي، فقام أحدهم فسأل الإمام ابن الجوزي وهو على كرسيه في مجلس وعظه، فقال ابن

---

(١) علي فكري، السمير المهذب، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٤٠.

الجوزي: أفضلهما من كانت ابنته تحته، ثم نزل في الحال لئلا يسأل ويعاود في ذلك، فقال أهل السنة: هو أبو بكر لأن ابنته عائشة كانت تحت النبي ﷺ، وقال الشيعة: هو علي لأن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تحته[١].

وسئل الإمام علي بن أبي طالب فقيل له: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم، فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم[٢].

ولقد صوّر لنا الشاعر أحمد شوقي ضرورة التنبه والحذر وأهمية الذكاء والفطنة في قصيدة رمزية رائعة قال فيها:

برز الثعلب يوماً
في شعار الواعظينا
فمشى في الأرض يهدي
ويسب الماكرينا
ويقول الحمد لله
إله العالمينا
يا عباد الله توبوا
فهو كهف التائبينا

---

(١) زامل الصالح الزامل، المجموع المنتخب من المواعظ والأدب، راسم للدعاية والإعلان، جدة، ١٩٨٦، ص ٤٥.

(٢) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص ٢٦ ـ ٢٧.

وازهدوا في الطير
إن العيش عيش الزاهدينا
واطلبوا الديك يؤذن
لصلاة الصبح فينا
فأتى الديك رسول
من إمام الناسكينا
عرض الأمر عليه
وهو يأبى أن يلينا
فأجاب الديك عذراً
يا أضل المهتدينا
بلِّغ الثعلب عني
عن جدودي الصالحينا
عن ذوي التيجان ممن
دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا وخير القول
قول العارفينا
مخطىء من ظن يوماً
أن للثعلب دينا(١)

(١) أحمد شوقي، الشوقيات، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٠٧.

٤ الراحة التي يعقبها ندماً

من الأخطاء الشائعة لدى كثير من الناس، والتي بسببها تسوء العلاقات وتتوتر، أنهم يحرصون على تفريغ الشحنات النارية المتجمعة في صدورهم وإطلاقها على شكل موجات غاضبة تحرق الأخضر واليابس. وبمعنى آخر أنهم لا يستطيعون السيطرة على غضبهم، بل يريد أحدهم أن ينفِّس عن غضبه ليرتاح، وما يدري المسكين أنه يحرق نفسه قبل أن يحرق الآخرين، وإذا لم يحرق نفسه بغضبه فإنه سيجني الحسرة والندامة من وراء غضبه، والعاقل لا يفرح براحة لحظية مؤقتة يعقبها ندم دائم وضيق مستمر.

إن الغضب داء عضال، بل هو مهلكة وسبب لكل قطيعة وجفوة، ولذلك أحببنا أن نجعل قاعدة خاصة لهذا الموضوع، رغم أننا نعلم أن هذا الموضوع متعلق بقاعدة العفو والحلم التي ذكرناها آنفاً، بل هو جزء منها، ولكن إفراد هذا الموضوع في قاعدة منفصلة أمر مهم، والتأكيد عليه مطلب حيوي لكل من يرغب النجاح في التعامل مع الآخرين.

يقول الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله: «إن الغضب

شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وإنها المستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1]، فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاستعار والحركة والاضطراب»[2].

وقال مجاهد: «قال إبليس: ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بحزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم»[3].

وقال بعضهم: «إياك والغضب، فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار». وقيل: «اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»[4].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: «أن لا تعاقب عند غضبك على رجل ولكن احبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢.
(٢) إبراهيم الجمل، جذور الشر، ص ٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٣١.
(٤) المصدر السابق، ص ٣١.

فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز خمسة عشر سوطاً». وقال جعفر بن محمد: «الغضب مفتاح كل شر»[١].

وقال بعض الأنصار: «رأس الحمق الحدة، وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه». وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة، فقال: «ترك الغضب»[٢].

(١) إبراهيم الجمل، جذور الشر، ص ٣١.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٢.

٥ الكنز الذي لا يكلف درهما

هل تريد الحصول على كنز ثمين دون أن تنفق درهماً أو دولاراً واحداً؟ إذا أردت ذلك فعليك بأمر مهم لا يكلف جهداً ولا وقتاً ولا مالاً، ألا وهو الابتسامة.

فالابتسامة مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، لها مفعولها السحري، وأثرها العجيب، ولا يمكن أن يتجاهل الابتسامة من يرغب في كسب محبة الآخرين.

إن كثيراً من المؤسسات الناجحة تفرض على موظفيها الذين يتعاملون مع الجمهور أن يبتسموا من أجل كسب الزبائن والحصول على رضا العملاء.

يقول الرسول ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[١].

ويقول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[٢].

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه مسلم.

ويقول المثل الصيني: «إن الذي لا يحسن الابتسامة لا ينبغي له أن يفتح متجراً»[١].

ويقول شواب: (وهو مدير أحد مصانع الصلب في أمريكا، وكان يتقاضى مليون دولار سنوياً): «لقد أكسبتني ابتسامتي مليون دولار»[٢].

ويقول دايل كارنيجي: «وقد سبق لي أن قابلت موريس شيفالييه الممثل الفرنسي الذائع الصيت، فبدا متجهم الوجه كريه النظرات، ولكنه حين ابتسم عرفت البساطة والصفاء اللذين يسحر بهما النظارة في أفلامه، وأدركت أنه لولا تلك الابتسامة لظل موريس نجارا مغموراً في إحدى ورشات باريس»[٣].

«يستطيع الناس جميعاً الابتسام، ولكن المشكلة تكمن في اكتشاف طبيعة هذه الابتسامة، وهل هي ابتسامة حقيقية أم زائفة لخداع الآخرين؟ ولطالما حيرت الابتسامة الغامضة في لوحة الموناليزا المحللين، وأثارت جدلاً كبيراً بين الناس. وبمرور الوقت يدرك الجميع أن الابتسامة تحتوي على تعابير أعمق مما هو ظاهر.

---

(١) دايل كارنيجي، كيف تكسب الأصدقاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص٣٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٨ ـ ٣٠.

وطوال الثلاثين عاماً الماضية انهمك العالم النفسي الأمريكي «بول إيكمان» من جامعة كاليفورنيا بقياس الابتسامة التي تعتبر أكثر التعابير الإنسانية وضوحاً.

وفي عام (١٩٧٨) طوّر «إيكمان» وزميله «والاس فريسان» نظاماً رمزياً لتعابير الوجه مكنه من تصنيف هذه التعابير على أساس الحركات الدقيقة التي تظهر على الوجه وتنتجها أكثر من (٨٠) عضلة، وقد أدى ذلك إلى تعرفه على لغة معقدة مؤلفة من (٥٠) ابتسامة تتراوح بين الترحاب الحار، والخداع البحت والصريح.

والهدف من هذا البحث ليس مجرد التسلية، فقد بدأ «إيكمان» بتعليم قضاة المحكمة العليا الأمريكية كيفية التمييز بين المتهمين الصادقين والمخادعين من مجرد قراءة ابتساماتهم. فالتهلل العشوائي للوجه يفترض أن يكون صاحبه صادقاً، في حين تنم التكشيرة المقلدة بعناية عن إشارة تحذير.

وذكر بعض علماء النفس المعاصرين المختصين بسيكولوجية الطفل، أن الطفل يبدأ بالضحك في مرحلة مبكرة جداً من حياته تبدأ من عمر ثلاثة أسابيع، ومن غير المحتمل أن تكون هذه الاستجابة موروثة عن الوالدين.

وعلاوة على ذلك يقول طبيب الأطفال البريطاني بيرتون وايت: «إن قيام الطفل ببسط عضلات الفم بشكل ابتسامة في الوجه يمثل آلية بقاء حيوية له، إذ يبدو أكثر جاذبية واستهواء،

ويقلل فرص هجر والدته له، فتلازمه باستمرار وتحميه من المخاطر المحدقة».

ويقول علماء النفس أن الأطفال الكفيفين يقومون بالابتسام بصورة تلقائية، وفي وقت لاحق عند البلوغ يصطنعون الابتسامات الاجتماعية، مما يؤكد أن الابتسامة هي عمل طبيعي وليست وسيلة تقليد معقدة.

وفي حين تبدأ الابتسامة كسلوك غريزي فإنها سرعان ما تتشكل بحسب الأوضاع الاجتماعية. وبمرور الوقت، وحينما يصبح الطفل في الرابعة من عمره لا تصبح الابتسامة بالضرورة علامة على المتعة والسرور المفرط، بل يمكن للطفل أن يصطنعها لإدخال السرور على قلوب الآخرين.

ويقول الدكتور «روجر لامب» من جامعة أكسفورد: «إن إشارات التحادث تصبح عادة متأصلة وتلقائية كالتعبيرات العاطفية الأخرى، ويصعب على البالغين الابتسامة بدون تحريك الرأس عندما يستمعون إلى الآخرين. وتبدأ المسألة حينما يحاول الناس من مختلف الأعمار والحضارات الابتسامة لتشجيع الآخرين على الحديث.

ويطور كل فريق اجتماعي نظامه الخاص من إشارات المحادثة، فنرى الإنجليز مثلاً يبتسمون ابتسامة صفراء من خلال تحريك إحدى زوايا الفم إلى أعلى والأخرى للأسفل، وهذه الابتسامة النموذجية تثير حيرة المكسيكيين والمغاربة على حد سواء.

أما عند اليابانيين فتوجد قوانين خاصة لتعبيرات الوجه. وحسب سلوكياتهم وتقاليدهم المرعية فإنه يجب عدم إظهار عواطفهم السلبية أمام الآخرين من غضب وحزن وكراهية، ويكتفون بتكشيرة الوجه. بينما يكثر اليابانيون من الضحك في أحاديثهم وكذلك الهنود وكثير من سكان الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا، ويعبرون عما يجول بخاطرهم من أمور بمجرد الابتسامة، بعكس الأمريكيين، مثلاً، الذين يعبرون عما يجول بخاطرهم بسلسلة واسعة من التكشيرات والتهجمات.

وتختلف الابتسامة بين الجنسين كذلك، فالمرأة تبتسم أكثر من الرجل، وهذا ليس معناه أنها أكثر سعادة منه، ولكن لأنها تتوقع أن تبدو أكثر جمالاً وتألقاً بالابتسامة. وغالباً ما تبتسم النساء عند الشعور بالاضطراب أو بعدم الراحة. وتوصف المرأة التي تكثر من الابتسام بأنها تمتلك أنوثة كاملة، بينما يوصف الرجل كثير الابتسام بأنه اجتماعي.

ومهما كان السبب فإن الأشخاص الذين يظهرون وهم يبتسمون في صورهم يعتبرون أكثر جاذبية من الأشخاص أصحاب الوجوه الصخرية الجامدة، ولهذا السبب فإن الأطفال الذين لا يتعلمون الابتسامة بصورة ملائمة ولائقة يجدون أنفسهم منبوذين في ساحة اللعب.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية تركز برامج التدريب الخاصة بالمهارات الاجتماعية على تعليم الأطفال المنبوذين

الابتسامة بدرجة كبيرة من الدفء، وقد أدى ذلك إلى إحراز نجاح كبير في تخلبصهم من عزلتهم.

والوسيلة الدقيقة لتحديد الابتسامة الملفقة تتمثل برصد التعبيرات الدقيقة من الغضب والحزن التي تظهر على الوجه في جزء بسيط من الثانية وتتبعها ابتسامة مصطنعة لتدل على السعادة.

وتستخدم أجزاء الدماغ المختلفة لإظهار الابتسامة الحقيقية أو المصطنعة وكذلك الابتسامة الإرادية أو اللاإرادية. ولهذا السبب يفشل بعض المرضى في إظهار التعبيرات التي يريدونها على وجوههم أو التي تظهر بصورة عشوائية، أو تبدو على وجوههم تعبيرات لا يستطيعون إظهارها عشوائياً وهم سليمون. ويقسّم بعض علماء النفس الابتسامات إلى الأنواع التالية:

١ ــ ابتسامة المتعة:

وهي الابتسامة التي تعبر عن شعور الشخص بالمتعة الكبيرة، حيث ترتفع فيها زوايا الفم إلى أعلى وتشد الوجنتان، ويشد الجلد حول جيوب العينين إلى الداخل، وكلما كانت العاطفة أقوى كانت الابتسامة أكثر وضوحاً.

٢ ــ الابتسامة البسيطة:

وتحدث عندما يزم الفم إلى أعلى، وتبقى الشفتان مغلقتان، وغالباً ما ترتسم عندما لا يراقب أحد صاحب الابتسامة، وهي تدل على المتعة الخاصة.

٣ ـــ الابتسامة الزائفة:

وهي تبدو عديمة التناظر بدرجة أكبر من الابتسامة الحقيقية، وتهدف خداع الآخرين وتضليلهم، وغالباً ما تُرتَسم على شفاه البائعين والموظفين الاجتماعيين وموظفي الاستقبال والدبلوماسيين، وهي تستمر فترة أطول من الحقيقية، وتنتشر على صفحة الوجه بدرجة أبطأ.

٤ ـــ الابتسامة العريضة:

وهي تكشف عن صفي الأسنان العلوي والسفلي، وعادة ما تسبق الضحكة المجلجلة، ولا يكون هناك اتصال بين العيون.

٥ ـــ الابتسامة البائسة:

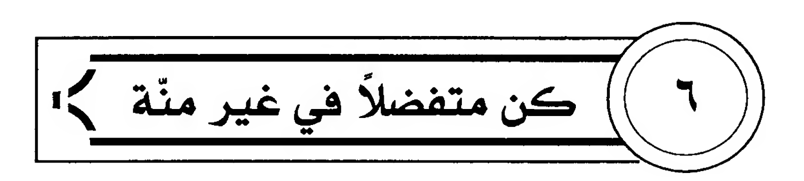
وهي الابتسامة الزوراء التي تُظهر مرارة النفس، وتكون لمنفعة الآخرين، وتعترف بالهزيمة أو التعاسة. ويمكن اكتشافها بسهولة من خلال شكلها «المشقول» والمائل إلى أحد الجانبين وكأن نصف الفم يبتسم والنصف الآخر تقطر منه المرارة.

٦ ـــ الابتسامة العلوية:

وهي تشمل كشف الصف العلوي من الأسنان، وغالباً ما تظهر حينما يحيي الناس بعضهم بعضاً، ويكون هناك اتصال تلقائي بين العيون»[١].

---

(١) ابتسم أقل لك من أنت، غير مبين كاتب المقال، جريدة الاتحاد، العدد ٥٢٢٦، ١٩٩٣/٩/٢، أبو ظبي.



٦ كن متفضلاً في غير منّة

تمر على الإنسان ظروف متلونة وأحوال متغيرة، فساعة يكون في أحسن حال وساعة يكون في أسوء حال، وصدق الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي حينما قال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

وقال آخر:

كفى زاجراً للمرء أيام دهره
تروح له بالواعظات وتغتدي

وعندما يبُتلىٰ الإنسان بظروف سيئة فإنه يكون بحاجة إلى إعانة الآخرين ومساعدة الأحباب والمقربين، لذا فإن كل من يقف معه في محنته أو يعينه في قضاء حاجته فإنه يكون أسيراً لإحسانه، ولولا خشية المبالغة لقلنا أنه يكون له عبداً.

قال ابن السماك: «عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الآخرين بمعروفه».

وفي هذا يقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

أحسن إذا ما كان إمكان ومقدرة
فلن يدوم على الإنسان إمكان

وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قيل: فإن لم يكن، قال: من كثرت أيادي عنده.

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم، فقال يا غلام ائتهم فاعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً.

وقيل بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار، فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب هارون وقال: أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيتي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار، فاستحيت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم، وحكي أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار[١].

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٦٧.

وحكي أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله شيئاً من عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا؟ فقال: إنها سألت على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا. وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمائة وستين مسكيناً.

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة: بلغني عنك خصال فحدثني بها، فقال: هي من غيري أحسن منها مني، فقال: عزمت عليك إلا حدثتني بها؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمنّ عليّ من مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه[(١)].

وقيل بكى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني[(٢)].

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال: ما جاء بك؟ قال: علي أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته: لمَ أعطيته إذ شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي[(٣)].

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة ، بيروت، ١٩٩٢ ، ص٣٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧١.

(٣) المصدر السابق، ص٣٧١.

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلاً جواداً، فإذا لم يجد شيئاً كتب لمن سأله صكاً على نفسه حتى يخرج عطاؤه، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال:

إني سمعت مع الصباح منادياً يا من يعين على الفتى المعوان

ثم قال: ما حاجتك؟ قال: ديني، قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: لك دينك ومثله.

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزىٰ الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى: من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده[1].

وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال: مروا فلاناً يغسلني، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتى بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال: هذا غسلي إياه، أي أراد به هذا. وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيماء الخير وآثار الفضل، فقلت: بلغ أثره في الخير إليهم،

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٦٨.

وظهرت بركته فيهم، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ (الكهف: ٨٢)[1].

وقال الشافعي رحمه الله: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه، أنه كان ذات يوم راكباً حماره فحركه فانقطع زره، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوي زره فقال الخياط: والله لا نزلت، فقام الخياط إليه فسوى زره، فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط، واعتذر إليه من قلتها. وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه:

يا لهف قلبي على مال أجود به
على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني
ما ليس عندي لَمِن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال: أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله، فقال: يا ربيع أعطه أربعة دنانير، واعتذر إليه عني.

وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته، فقلت له: ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك، قال: فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال، فقال: ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها، وقد وقف أكثرها، ولكني

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة ، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٦٩.

بنيت بمنى مضرباً يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه.

وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول:

أرى نفسي تتوق إلى أمور
يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل
ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها، فأخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، منْع الموجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائة ألف أخرى[1].

ويذكر أنه توفي والد أحد الفضلاء في أسيوط بمصر، وكان هذا الرجل على خلاف مع الأستاذ حسن البنا منذ سنين ولم يحاول الاتصال به، وبمجرد أن علم الأستاذ البنا منذ سنين ولم يحاول الاتصال به، وبمجرد أن علم الأستاذ البنا بهذا الخبر انتقل بسرعة من القاهرة إلى أسيوط ناسياً كل خلاف، ولما وصل استقبل هناك أحسن استقبال، وحين جاء وقت صلاة العصر توجهت جموع المعزين إلى المسجد، وبعد أداء الصلاة طلب المصلون من الأستاذ البنا أن يلقي عليهم

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٧٠.

موعظة، فوقف فضيلته وشكرهم وقال: لقد أتيت معزياً ولم آت داعياً، وكانت هذه الكلمات الكبيرة المعنى أعظم دعوة، ووقعت في قلب صاحب البنا، وطلب الصفح من البنا، فحسنت العلاقة وزالت الجفوة[1].

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال: «صدق اللسان، ومواساة الإخوان، وذكر الله تعالى في كل مكان».

وقال بعض حكماء الفرس: «صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة، ونفسه عند النكبة، ويحفظك عند المغيب».

ورأىٰ بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان، فسأل عنهما، فقيل: هما صديقان، فقال: «ما بال أحدهما فقيراً والآخر غنياً».

وقيل لبعض الحكماء: هل شيء خير من الذهب والفضة؟ قال: «معطيهما».

وقيل كذلك لبعض الحكماء: أي شيء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله، قال: «الإحسان إلى الناس».

وينبغي الإشارة هنا إلى بعض الأمور المهمة التي ينبغي أن ينتبه إليها المحسن الذي يسعىٰ في حوائج الناس ومصالحهم، وإذا لم يتم الانتباه لهذه الملاحظات فربما يذهب هذا السخاء وذلك الإحسان هباءً منثوراً، وهي كما يلي:

١ ـ أن يكون الإحسان خالصاً لوجه الله تعالى، وأن يحذر

(١) عباس السيسي، حسن البنا ـ مواقف في الدعوة والتربية، دار الطباعة والنشر والصوتيات، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٥٤ ـ ٥٥.

الإنسان من أن يبيع إحسانه بعرض من الدنيا قليل، وذلك بأن ينتظر من الآخرين جزاءً لمعروفه وإحسانه وخدمته، لذا يقول الشاعر:

لا تبذل العرف حين تبذله
كمشتري الحمد أو كمعتاضه
بل تفعل العرف حين تفعله
لجوهر العرف لا لأعراضه

٢ ـ أن يقدم الإنسان الإحسان والمعروف وهو فرح متهلل الوجه غير مستثقل له، لأنه إن عبس واستثقل المعروف كان بنعم الله متبرماً ولإحسانه متسخطاً، وفي هذا يقول الشاعر:

تراه إذا ما جئته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

٣ ـ أن يحذر المرء من المنة، ويبتعد عن العلو والتكبر والاستطالة لأنها من لؤم الطبع وضيق الصدر، وفيها هدم للصنيع وإحباط للعمل، وقد قيل لأحد حكماء اليونان: من أضيق الناس طريقاً وأقلهم صديقاً؟ قال: من عاشر الناس بعبوس وجه، واستطال عليهم بنفسه.

إن الإحسان الذي يتبعه مَنٌ وأذى هو إحسان لا خير فيه ولا أجر عليه، إنه في الحقيقة إساءة وليس بإحسان، وقد نهى الله عن ذلك فقال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ (البقرة: ٢٦٣ ـ ٢٦٤). لذا فإننا نؤكد على هذا المعنى وننصح فنقول: كن متفضلاً في غير منة.

٤ ـ أن لا يصاحب المعروف الذي يسديه الإنسان والإحسان الذي يقدمه تقريعاً بذنب أو توبيخاً على هفوة، لأن في ذلك إساءة ما بعدها إساءة، وإذلال ما بعده إذلال، ولذا يقول النابغة الذبياني:

ألم تعلما أن الملامة نفعها
قليل إذا ما الشيء ولى فأدبرا[(١)]

نعم، إن الإنسان يستطيع أن يشتري الآخرين ويكسب ودّهم (لاسيما المؤلفة قلوبهم) بالإحسان والسخاء وبذل المعروف والابتعاد عن الشح، وهذا ما فعله الرسول ﷺ بصفوان بن أمية حيث قال صفوان: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليَّ، فمازال يعطيني حتى صار أحب الناس إليَّ، ثم أسلم صفوان[(٢)].

---

(١) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) صالح أحمد الشامي، من معين السيرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤، ص ٤٢١.

٧ ترفع عن ما في أيدي الناس تكن محبوباً لديهم

ابتلى كثير من الناس بداء الحرص والطمع والنظر إلى ما عند الآخرين، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم، ويشب معه اثنتان: الأمل وحب المال»[٢].

وعن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه، فجئته ذات يوم فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث، ولا يملأ

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

«إنّ الباعث على هذا الخلق الرديء شيئان: الشره وقلة الأنفة، فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيراً لأجل شرهه، ولا يستنكف مما مُنع وإن كان حقيراً لقلة أنفته، وهذه حال من لا يرضىٰ لنفسه قدراً، ويرى المال أعظم خطراً، فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنماً. وليس لمن كان المال عنده أجلّ، ونفسه عليه أقلّ، إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب»[٢].

يقول الشاعر:

ومن كانت الدنيا مناه وهمه
سبته المنىٰ واستعبدته المطامع

إنّ هذا الخلق (الطمع والنظر إلى ما عند الآخرين) يورث المهانة والذل والهوان، ويتسبب في كراهية الناس لصاحبه وبغضهم له ونفورهم من مجالسته ومعاشرته. لذلك حثّ الإسلام على التخلص منه، وذلك بالقناعة والاستغناء عما في أيدي الناس، فقد قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح.
(٢) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص ٣١٤.
(٣) رواه الترمذي وصححه النسائي.

«ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة»[٢].

وقال أحد الصحابة للنبيّ ﷺ: يا رسول الله عظني وأوجز، فقال: «إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، وأجْمِع اليأس مما في أيدي الناس»[٣].

وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله ﷺ ـ تسعة أو ثمانية أو سبعة ـ فقال: «ألا تبايعون رسول الله» قلنا: أوليس قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: «ألا تبايعون رسولَ الله»، فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتصلوا الخمس، وأن تسمعوا وتطيعوا» وأسر كلمة خفية» ولا تسألوا الناس شيئاً» قال: (أي عوف بن مالك): فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه[٤].

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الحاكم وصحح إسناده.
(٣) رواه ابن ماجه والحاكم وهو صحيح الإسناد.
(٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم».

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك، ورضاك بما يكفيك»، وفي ذلك يقول الشاعر:

العيش ساعات تمر
وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه
واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه
ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع رحمه الله يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: «من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه، «ما من يوم إلا ومالك ينادي، يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك».

وقال سميط بن عجلان: «إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر، فلم يدخلك النار؟».

وقيل لحكيم: ما مالك؟ قال: «التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا طلب أحدكم

الحاجة فليطلبها طلباً يسيراً، ولا يأتي الرجل فيقول: إنك وإنك فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق»[١].

وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه، فكتب إليه: «قد رفعت حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عني قنعت».

وقال بعض الحكماء: «وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط». وفي ذلك قيل:

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة
إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه
والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنّ القناعة من يحلل بساحتها
لم يلق في دهره شيئاً يؤرقه

وقيل كذلك:

حتى متى أنا في حل وترحال
وطول سعي وإدبار وإقبال

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٥٢.

ونـازح الـدار لا أنـفـك مـغـتـربـاً
عـن الأحـبـة لا يـدرون مـا حـالـي
بـمـشـرق الأرض طـوراً ثـم مـغـربـهـا
لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولـو قـنـعـت أتـانـي الـرزق فـي دعـة
إن الـقـنـوع الـغـنـي لا كـثـرة الـمـال

وقال عمر رضي الله عنه: «ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالىٰ: حلتان لشتائي وقيظي، وما يسعني من الظَهر لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟»، كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها؟

ويقول الشاعر:

أراك يـزيـدك الإثـراء حـرصـاً
عـلـى الـدنـيـا كـأنـك لا تـمـوت
فـهـل لـك غـايـة إن صـرت يـومـاً
إلـيـهـا قـلـت حـسـبـي قـد رضـيـت[1]

وقال أبو محمد اليزيدي: دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب، فلما رآني تبسم فقلت:

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٥٣.

فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما، وقد أضفت إليها ثالثاً، ثم أنشدني:

إذا سد باب عنك من دون حاجة
فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه
ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالاً لعرضك واجتنب
ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب: ما يُذِهب العلوم من قلوب العلماء إذ وعوها وعقلوها؟ قال: «الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج». وقال رجل للفضيل: فسر لي قول كعب، قال: يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خرم أنفك، وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له، فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض، لم تسلم عليه لله عزّ وجلّ ولم تعده لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك[1].

ويقول الشاعر:

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٥٤.

لا تخضعن لمخلوق على طمع
فإن ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه
فإنما هو بين الكاف والنون

إن من علو النفس وسمو الخلق أن يترفع المرء عن سؤال الناس حاجة ولو كانت يسيرة، كأن يترفع (ما أمكن) عن سؤالهم إيصاله إلى مكان ما، أو حملهم لأمتعته، أو مناولته كأساً من الماء، أو غسل ملابسه، أو تنظيف بيته، أو إصلاح سيارته (بدون مقابل). . . إلخ.

ويمكن الإشارة كذلك إلى أهم الوسائل التي يمكن للمرء أن يعالج بها حرصه وعدم قناعته، وقد ذكرها الإمام أبو حامد الغزالي، ونوردها هنا مع شيء من الاختصار، وهي:

١ ـ الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق: فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلا ما لا بد له منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة. روى أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حباً من الأرض وهو يقول: إن من فقهك فقهك في معيشتك.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبيّ ﷺ: «الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوّة»[١].

(١) رواه الترمذي وحسنه عن عبد الله بن سرجس، ورواه أبو داود عن ابن عباس مع تقديم وتأخير.

٢ ـ أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل: ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالىٰ، إذ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]، وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض، وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقداً مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال، وربما لا يكون، وفي مثله قيل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقال سفيان: «اتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً». أي لا يترك التقي فاقداً لضرورته، بل يُلقي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه، ولذا يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

٣ ـ أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في

(١) سورة هود: الآية ٦.
(٢) سورة الطلاق: الآيتين ٢ ـ ٣.

الحرص والطمع من الذل: فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل، وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول، وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلاّ الله وفيه ثواب الآخرة.

إن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق، ويلزمه المداهنة، وذلك يهلك دينه، ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان.

قال ﷺ: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس»[١].

ففي القناعة الحرية والعز، ولذلك قيل: «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره».

٤ ـ أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى ومن لا دين لهم ولا عقل، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، وإلى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هو أعزّ أصناف الخلق عند الله، حتى يهون عليه بذلك

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، والحاكم وصحح إسناده.

الصبر على الضنك والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلا منه، وإن تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه، وأن تزين في الملبس والحلى ففي اليهود من هو أعلى زينة منه، وإن قنع بالقليل ورضى به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

٥ ـ أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع، وما في خلو اليد من الأمن والفراغ، وعليه أن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول: لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول: ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم؟

قال أبو ذر رضي الله عنه: «أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي» أي في الدنيا[1].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[2].

---

(١) رواه أحمد وابن حبان.
(٢) متفق عليه.

فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلاً، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدّة طمعه في انتظار الشفاء»[١].

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٨.

٨ لا تجعل لأحد عليك منة

فمن أراد أن يكون محترماً مقَدَّراً ذا قيمة بين الناس فلا يجعل لأحد عليه منة، سواء كان ذلك عن مسألة أو عن غير مسألة. ولا نعني بذلك قبول الهدية المناسبة، ولكن نقصد به قبول الصدقة أو سؤالها، وكذلك قبول العطايا المبالغ فيها، إذ أنه يجعل للآخرين عليه فضلاً ومنة ربما تخدش مروؤته وتحط من مكانته.

إن على الإنسان أن يعمل ويجتهد حتى لا يحتاج لأحد فيكون للآخرين عليه منة، وقد قالت العرب في أمثالها: «كلب جوال خير من أسد رابض». وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة، فقال: «العفة والحرفة»[١].

وقال بعض الحكماء لابنه: «يا بني، لا تكن على أحد كَلا، فإنك تزداد ذلاً، واضرب في الأرض عَوداً وبدءاً، ولا تأسف لمال كان فذهب، ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب، فهذا حال اللازم»[٢].

---

(١) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص ٣١٦.
(٢) المصدر السابق، ص٣١٦.

وقد كان ذوو الهمم العلية، والنفوس الأبية، يرون ما وصل إلى الإنسان كسباً أفضل مما وصل إليه إرثاً، لأنه في الإرث في جدوى غيره، وبالكسب مُجْدٍ إلى غيره، وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر. وقال كشاجم:

لا أستلذ العيش لم أدأب له
طلباً وسعياً في الهواجر والغلس
وأرى حراماً أن يواتيني الغنى
حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن أخيك موفراً
فالليث ليس يسيغ إلا ما افترس[1]

وهذا الكسب لا يخالف القناعة والبعد عن الحرص والطمع، إذ أن الإنسان (مع عمله وكسبه للمال) ينبغي عليه أن يجعل المال في يده لا في قلبه، وأن ينفقه فيما يرضى الله، وأن لا يحزن ولا يضطرب إذا لم يحصل عليه أو إذا فقده، فما طلبه للمال وسعيه للحصول عليه إلا ليرضى الله به بالإنفاق، وليعف نفسه وأهله من ذل الحاجة إلى الآخرين، وهذا هو الفرق بينه وبين الحريص على المال الذي استعبده المال وملك عليه زمام عقله وقلبه.

وقد ذكر الإمام أبو الحسن الماوردي كلاماً نفيساً في هذا

---

(١) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص٣١٧.

المقام، فكان مما قال: «وأما صيانتها (أي النفس) عن تحمل المنن، والاسترسال في الاستعانة، فلأن المنة استرقاق الأحرار، تحدث ذلة في الممنون عليه، وسطوة في المان، والاسترسال في الاستعانة تثقيل، ومن ثقل على الناس هان، ولا قدر عندهم لمهان.

وقال رجل لعمر رضي الله عنه: خدمك بنوك، فقال: أغناني الله عنهم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن، في وصيته: «يا بني، إن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، فإن اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وإن كان كل منه كثيراً».

وقال زياد لبعض الدهاقين: ما المروءة فيكم؟ قال: «اجتناب الرِّيَب فإنه لا ينبل مريب، وإصلاح الرجل ما له فإنه من مروءته، وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فإنه لا ينبل من احتاج إلى أهله، ولا من احتاج أهله إلى غيره». وأنشد ثعلب:

من عف خف على الصديق لقاؤه
وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفّرت ما في كيسه
فإذا عبثت به فأنت ثقيل[1]

---

(١) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص٣١٨.

وإن كان الناس لِحْمة لا يستغنون عن التعاون، ولا يستقلون عن المساعد والمظافر، فإنما ذلك تعاون ائتلاف، يتكافئون فيه ولا يتفاضلون، وربما كان المستعين فيه مفضلاً، والمعين مستفضلاً، كاستعانة السلطان بجنده، والمزارع بأكرته، فليس من هذا بد، ولا لأحد عنه غنى، وإنما الذي يتصون عنه الكرام، تعاون التفضيل، فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون عليهم يد، ويسارعون أن يعينوا لأن يكون لهم يد.

ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال، فقد أوهى مروءته، واستبذل صيانته. ومن دعاه الاضطرار لنائب ألم، أو حادث هجم فلا لوم على مضطر، فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحه، لكن إن وجده قرضاً مردوداً لم يأخذه صلة وجوداً، فإن القرض مستسمح به في المروءات.

وهذا رسول الله ﷺ، مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن. قال البحتري:

إن لم يكن كُثْر فكل عطية
يبلغ بها باغي الرضا بعض الرضا
أو لم يكن هبة فقرض يُسرت
أسبابه، وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدَين رقا فهو أسهل من رق الإفضال[١]. قال بعض الحكماء: «من قبل صلتك فقد باعك مروءته، وأذل لقدرك عزه وجلالته»[٢].

وينبغي أن ينتبه من تضطره الظروف إلى سؤال الناس إلى أربعة أمور هامة وهي:

١ ـ أن يتجافى ضرع السائلين وأُبّهة المستقلين، فيذل بالضرع، ويحرم بالأبهة، وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات. وقد قيل لبعض الحكماء: متى يفحش زوال النعم؟ قال: «إذا زال معها التجمل». وأنشد بعض أهل الأدب لعلي بن الجهم:

هي النفس ما حمّلتها تتحمل
وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة
وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة
ولكن عاراً أن يزول التجمل

٢ ـ أن يقتصر في السؤال على ما دعته إليه الضرورة،

---

(١) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص٣١٩.
(٢) المصدر السابق، ص٣٢٠.

وقادته إليه الحاجة، ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام، فيحرم باغتنامه، وقد قال بعض الحكماء: «من ألف المسألة ألفه المنع».

٣ ـ أن يَعذر في المنع، ويشكر على الإجابة، فإنه إن منع فعما لا يملك، وإن أجيب فإلى ما لا يستحق. قال النمر بن تولب:

لا تغضبن على امرىء في ماله
وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

٤ ـ أن يسأل من كان للمسألة أهلاً، وكان النجح عنه مأمولاً، فإن ذوي المُكْنَة كثير، والمعين منهم قليل، والمرجو للإجابة من تكاملت فيه خصالها، وهي ثلاث:

أ ـ كرم الطبع: فإن الكريم مساعد، واللئيم معاند، وقد قيل: «المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة».

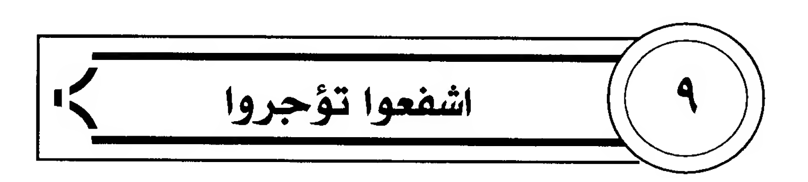
ب ـ سلامة الصدر: فإن العدو حرب في نائبتك، وقد قيل: «من أوغرت صدره، استدعيت شره، فإن رق لك بكرم طبعه، ورحمك بحسن ظفره، فأعظم بها منحة: أن يصير عدوك لك راحماً!». وقال الشاعر:

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

جـ ـ ظهور المُكْنَة: فإن من سأل ما لا يمكن فقد أحال، وكان كمستنهض المسجون، ومستسعف المديون، وكان بالرد

خليقاً، وبالحرمان حقيقاً. وصى عبد الله بن الأهتم ابنه فقال: «يا بني لا تطلب الحوائج من غير أهلها، ولا تطلبها في غير حينها، ولا تطلب ما لست له مستحقاً، فإنك إن فعلت ذلك كنت حقيقاً بالحرمان (انتهىٰ كلام الماوردي)[١].

(١) علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.



٩ اشفعوا تؤجروا

يقول الله تعالىٰ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾[١].

إنّ الشفاعة الحسنة للآخرين هي مرضاة للرب جل جلاله، كما أنها سبيل إلى محبة الناس ومودتهم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (في قصة بريرة وزوجها) قال: قال لها النبيّ ﷺ: «لو راجعته؟» قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه[٣].

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٥.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

والشفاعة قد تكون نتيجة لطلب من الآخرين، وربما تكون بمبادرة ذاتية من الشافع دون أن يطلب منه ذلك، ولا شك أنّ الثانية (في الغالب) أفضل من الأولى.

أخرج ابن عساكر عن مبارك بن فضالة، قال: كنا عند المنصور، فدعا برجل ودعا بالسيف، فقال مبارك: «يا أمير المؤمنين، سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، قام مناد من عند الله ينادي: ليقم الذين أجرهم على الله، فلا يقوم إلا من عفا»[١]، فقال المنصور: خلوا سبيله[٢].

وجاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به، فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله عزّ وجلّ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عزّ وجلّ[٣].

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن عمران بن حصين.
(٢) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة من حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٨٦.
(٣) المصدر السابق، ص٢٧٩.

ويمكن استثناء صنفين من الناس من الشفاعة، أما أحدهما فهو الذي لا تزيده الشفاعة الحسنة إلا تمادياً في التقصير والخطأ، حيث يخطىء ويصر على خطئه لأنه يعلم أن هناك من يشفع له، لذا فالأولى في حق هذا النوع من الناس أن لا يُشفع له حتى يتأدب ويستقيم، فلا يتجرأ على الخطأ، فالشفاعة في حقه منقصة له، وهي تضره ولا تنفعه.

أما الصنف الثاني، فهو الذي تؤدي الشفاعة في حقه إلى مفسدة أكبر، أو لا تكون الشفاعة في صالحه ومدعمة لموقفه، ذلك لأن بعض الناس لا يحبون الشافعين، وإذا حاول أحد الناس أن يشفع عندهم لآخرين فإنهم يصرون على مواقفهم ويتعنتون ولا يقبلون هذه الشفاعة، وربما يضاعفون العقوبة لاعتقادهم أن المشفوع قد أدخل عنصراً ثالثاً (وهو الشافع) وأقحمه في الأمر. ويحدث هذا كثيراً عندما يكون الأمر يخص الزوج وزوجه، فلا يحب كثير من الأزواج التدخل في حياتهم الزوجية، ولذلك فإن الحكمة تقتضي التمهل وعدم التدخل.

١٠ اجعل الشخص الآخر يشعر بأهميته

تعتبر هذه القاعدة من القواعد المهمة في السلوك الإنساني، ولذا يقول الدكتور جون ديوي: «إن الرغبة في الأهمية هي أعمق حافز في الطبيعة الإنسانية»[١].

إن أقسى شيء على الإنسان أن يشعر بالتهميش وعدم الأهمية، ولذا فمن لا يشعر الآخرين بأهميتهم فإنه يصعب عليه أن يصل إلى قلوبهم. إن أشعار الآخرين بأهميتهم يكون عن طريق التأكيد على أهمية عملهم أو تفكيرهم أو آرائهم أو حكمتهم أو ذوقهم أو أي صفة من صفاتهم أو سلوك من سلوكياتهم.

وبإمكانك أن تنفذ إلى قلب شخص ما بسرعة وسهولة عندما (مثلاً) تناقش موضوعاً ما (وليكن موضوعاً ثقافياً) ثم تلتفت إلى أحد الجلوس وتقول له: ما رأيك يا فلان في هذا

---

(١) دايل كارنيجي، كيف تتعامل مع الناس، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١٦.

الأمر؟ هنا يشعر هذا الشخص أن لرأيه أهمية وأنه ذو قيمة. وكذلك يمكنك إشعار الآخر بأهميته عند استخدامك لبعض الكلمات مثل (وجودك مهم)، (لا يمكن أن يستغنى عنك)، (أنت صاحب حجة مفيدة)، (لك تأثير كبير على كذا وكذا)، (أنت صاحب تجربة نافعة).. إلخ.

ويمكن للإنسان كذلك أن يكسب الآخرين بإشعارهم بأهميتهم عن طريق الكلام عن مناقبهم وصفاتهم. تقول دوروثي ديكس في مقال لها: قابلت ذات يوم رجلاً أودع السجن بتهمة تعدد الزوجات، وحين سألته عن قضيته أجاب بصراحة: أنه كان له (٢٣٣) زوجة، وأنه قد كسب قلوبهن وكذلك رصيدهن في المصارف. أما السر في ذلك فهو كما قال: «إنني لم أستعمل الخداع أبداً، بل كنت كل ما أفعله أن أظل أحدث المرأة عن نفسها طوال الوقت»[١].

ومن أساليب إشعار الآخرين بأهميتهم إظهارهم وإبرازهم للعامة عن طريق مقال ينشر في صحيفة أو محاضرة تلقى في منتدى. وهذا الأسلوب تستخدمه كثير من الصحف والمؤسسات، لا سيما تلك التي لها انتماء فكري معين، حيث تعمد إلى من تريد احتوائه وكسب ولائه بإبرازه في الصحيفة ونشر صورته وتصريحاته ومقالاته، وقد تثني عليه وتمدحه،

---

(١) دايل كارنيجي، كيف تكسب الأصدقاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص ٤٦.

مما يكون له بالغ الأثر في نفسه، فيقترب شيئاً فشيئاً إلى فكر هذه المؤسسة وتوجهاتها.

لا بد أن نعلم أن كل إنسان يعتبر نفسه مهما، ومهما جداً. فاليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار. واليابانيون يعتبرون أنفسهم أرفع منزلة من الأوربيين، ولذلك الياباني يتقطع غيظاً عندما يجد رجلاً أوربيا يسير مع امرأة يابانية. والهندوس يعتبرون أنفسهم سادة العالم، بل يرفض بعضهم تناول الطعام الذي يمسه غيرهم. والعرب يعتبرون أنفسهم أكثر أصالة من العجم، والذي يرجع إلى أشعار العرب ـ لا سيما القدماء منهم ـ يلحظ ذلك بوضوح.

والمسلم كذلك يعتبر نفسه أفضل خلق الله استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. إن كل إنسان يشعر أنه أفضل من الآخرين بطريقة ما، والوسيلة الأكيدة للدخول إلى قلبه هي أن تجعله يشعر أنك تقدر أهميته في عالمه الصغير.

يقول «أمرسون»: «كل رجل أقابله هو أفضل مني بطريقة ما، ومن هنا أستطيع أن أتعلم منه»[1].

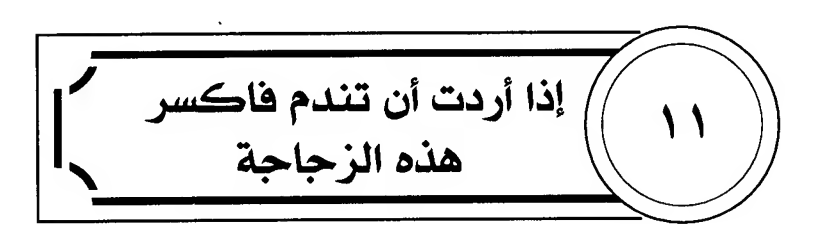
يذكر الأستاذ عباس السيسي أن الحاج عبد الرزاق هويدي استأذن في السفر إلى بلده، فلما سأله الأستاذ حسن البنا عن

(١) دايل كارنيجي، كيف تتعامل مع الناس، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٢٠.

سفره المفاجىء أخبره أن جده مريض ويريد أن يعوده، فدعا له البنا وطلب من الحاج عبد الرزاق أن يبلِّغ جده خالص تمنياته له بالشفاء. وفي اليوم التالي فوجئت عائلة هويدي بالأستاذ البنا يحضر لزيارة جدهم الكبير، وكانت مفاجأة أثارت اهتمام العائلة جميعاً، فأسرعت ترحب بمقدمه. وشباب عائلة هويدي لهم ميول سياسية متباينة، فمنهم الوفدي ومنهم السعدي. وحول سرير الجد الكبير دارت بعض الأحاديث الخفيفة، وتكلم الجد بكلمات ترحيب للأستاذ البنا، ونوه بفضله إذ جعل عبد الرزاق شخصية إسلامية مؤمنة، فرد الأستاذ البنا قائلاً: إنه لا فضل لنا في ذلك، إذ أننا، والحمد لله، نُرزَق من كل عائلة كريمة بمن يمثلهم في هذه العائلة. ونزلت هذه الكلمات الرقيقة الواعية على قلوب الجميع برداً وسلاماً وتذوقوا فيها قيمة الدعوة والداعية[1].

---

(١) عباس السيسي، حسن البنا ـ مواقف في الدعوة والتربية، دار الطباعة والنشر والصوتيات، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٥٤.



للبشر كرامة وكبرياء لا ينبغي التعرض لهما بشيء من التجريح أو الإساءة، فكم من الجرائم ارتكبت نتيجة الشعور بالإهانة وجرح الكرامة، فرب إشارة مهينة لا تجعل الإنسان ينام الليل من الضيق والألم، ورب كلمة تكون عاقبتها قتلاً أو سجناً أو تشريداً.

إن قلب الإنسان كالزجاجة إذا كسرت لا يمكن إصلاحها، والزجاجة المكسورة تؤذي وتجرح، وخير للإنسان أن يتجنب كسرها. نعم، إن في كسر زجاجة القلوب ندامة محققة وخسارة راجحة، وصدق الشاعر إذ يقول:

واحرص على حفظ القلوب من الأذى
فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها
مثل الزجاجة كسرها لا يشعب

ويحسن بالإنسان استخدام بعض الكلمات التي تعبر عن التقدير والاحترام، فيكسب بها قلوب الآخرين وينال مقصوده،

فمثلاً: إذا أردت شيئاً بإمكانك أن تقول للطرف الآخر: افعل كذا، أو أكلفك بفعل كذا، أو آمرك أن تذهب إلى مكان كذا. . . إلخ، ولكن هذه الكلمات تفتقر إلى التقدير والاحترام، والأجدر أن تقول: لو سمحت يا أخي افعل كذا، أو من فضلك اذهب إلى المكان الفلاني، أو لو تكرمت لا تفعل كذا، . . إلخ، وبعد الانتهاء من العمل ينبغي أن تشكر فاعله على اجتهاده وتثني على صنيعه.

إن الفرق كبير بين الأسلوبين سالفي الذكر، إنك في الحالة الأولى قد يتحقق لك إنجاز العمل ولكن لن تستطيع كسب محبة الآخرين، بينما في الحالة الثانية سيتم كسب محبة الآخرين وكذلك إنجاز العمل بإخلاص وإتقان، ولذلك ننصح بعدم استخدام أسلوب الأمر والنهي ما أمكن ذلك.

ومن تقدير الآخرين واحترامهم احترام آرائهم وأفكارهم، ولذلك فإن ثمة وصية ثمينة نوصي بها وهي تجنب تخطيء الآخرين صراحة، فمثلاً، لا تقل لشخص: «أنت مخطىء وسوف أعلمك بالصواب» أو «اسمع يا هذا، سأثبت لك بطلان ما تقول».

إنك باستخدامك مثل هذه العبارات كأنك تقول للطرف الآخر: إنك أيها الرجل بليد لا تفهم، تعوزك براعتي وينقصك ذكائي، ولا شك أن هذا الأمر إهانة لا يقبلها أحد. إن بإمكانك أن تثبت أن كلامه خطأ ولكن بأسلوب آخر فيه أدب واحترام، كأن تقول له: تعال ندرس الموضوع من كل جوانبه، أو تبين خطأه

بسؤال أو استفسار يضطر عند الإجابة عليه أن يخطىء نفسه.

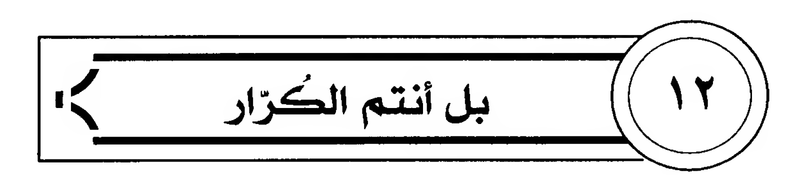
ومن الأمثلة الراقية في هذا الموضوع ما فعله رسول الله ﷺ مع مرضعته، حيث روى أن ظئر رسول الله ﷺ (أي مرضعته) التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها: مرحباً بأمي ثم أجلسها على الرداء، ثم قال لها: اشفعي تُشَفّعي وسلي تعطي، فقالت: قومي، فقال: أما حقي وحق بني هاشم فهو ذلك، فقام الناس من كل ناحية وقالوا: وحقنا يا رسول الله، ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانة بحنين[(١)]. ولربما أتى رسول الله ﷺ من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه، فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل.

وذكر الأستاذ عباس السيسي أن الأستاذ حسن البنا قام بزيارة الإسكندرية وكان بصحبته الداعية الإسلامي عليم الله الصديقي، وبينما كان البنا جالساً مع ضيفه حضر نفر من الناس وقدموا هدية للبنا وتركوا الضيف، وما أن قام أحدهم بتقديم الهدية إلى البنا حتى قام فضيلته من فوره إلى الضيف الجليل عليم الله الصديقي، وقال: وأنا أتقدم بهذه الهدية إلى مولانا وضيفنا عليم الله الصديقي، وقام الضيف وتسلم الهدية في بشر وسرور، وكان لذلك أثر عميق في قلبه[(٢)].

---

(١) رواه أبو داود والحاكم وصححه عن أبي الطفيل.

(٢) عباس السيسي، حسن البنا ـ مواقف في الدعوة والتربية، دار الطباعة والنشر والصوتيات، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٦٢.



١٢ بل أنتم الكُرّار

إن الإنسان مجبول على حب التشجيع والمدح والثناء وعلى كره إظهار العيوب والمثالب، كما أن التشجيع فيه تحفيز للإنسان على العطاء والاجتهاد، لا سيما إذا كان هذا الثناء ثناء صادقاً لا كذب فيه ولا نفاق.

ولذا أثنىٰ رسول الله ﷺ على كثير من صحابته، فقال في أبي بكر الصديق: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح»(١).

ويروي عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»(٢).

إنّ جيش مؤتة بعد أن رجع من المعركة ولم يحقق النصر الحاسم على الروم أطلق عليهم بعض الناس: «الفُرّار»، ولكن الرسول ﷺ لم يقبل بذلك وإنما مدحهم وأثنى عليهم ووصفهم بـ «الكُرّار».

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

هذا بالإضافة إلى أن رسول الله ﷺ سمى أبا عبيدة بـ «أمين هذه الأمّة». فقال في الحديث الذي يرويه الإمام البخاري: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وقد سمى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب بـ «الفاروق»، وأطلق على الزبير بن العوام بـ «حواري رسول الله»، وشجع حسان بن ثابت في قول الشعر فقال: «أهجهم وروح القدس معك»[١].

هذا الثناء الجميل الذي مارسه الرسول ﷺ مع صحابته كان فيه الرسول صادقاً ومخلصاً، كما أنه كان خبيراً بأصحابه بصيراً بما ينفعهم، هذا بالإضافة إلى أن صحابته كانوا أجل وأعلى من أن يطغيهم هذا المدح أو أن يدخل في نفوسهم الغرور والعُجْب والرياء، ولذا فقد آتى هذا التشجيع أكله، وكان له أثر بالغ في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم.

روى أن «تشارلي شواب» كان يتقاضى مليون دولاراً سنوياً لقاء قيامه بإدارة مصانع «أندرو كارينجي» للصلب، ولكن هل كان هذا الرجل عبقرياً ومعجزة خارقة للعادة؟ أم أن هناك سر في نجاحه حتى استحق أن يحصل على هذا المبلغ الكبير. يقول هذا الرجل واصفاً سر نجاحه: «إنني أعتبر نجاحي في

---

(١) لمزيد من الشواهد والأمثلة يمكن الرجوع إلى: أحمد الجدع، ألقاب الصحابة ـ مصادرها وقصصها وأهدافها، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ١٩٨٥، الكتاب كله.

بث الحماسة في نفوس من أعمل معهم هو أعظم رأسمال لدي، وسبيلي إلى ذلك ميسور للغاية، فأنا أشجعهم، وأكيل لهم الثناء في كل مناسبة، وهذا ما يجعلني أعزف عن نقد أي من الذين يشتغلون تحت أمرتي، بل إنني أسرف في إطرائهم جميعاً»[١].

مما لا شك فيه أنه لا يخلو إنسان من إيجابيات وصفات حسنة، فاختر شيئاً جميلاً في الفرد وحدثه عنه وامدحه به ولو كان شيئاً يسيراً، كما فعل دايل كارنيجي حينما ذهب إلى أحد مكاتب البريد في نيويورك، ولاحظ أن الموظف قد سئم من عمله، فقال في نفسه: «سأحاول أن أجعل هذا الفتى يحبني»، فماذا صنع؟ التفت كارنيجي إلى رأس الموظف ثم قال له بكل حماس: «كم أتمنى لولدي شعراً مثل شعرك»، فنظر الموظف بدهشة ووجهه يشرق بالابتسامة وقال: حسناً، لم يعد رائعاً كالسابق، فأكد له كارنيجي أنه لا زال رائعاً، ففرح الموظف بكلام كارنيجي ثم قال: كثير من الناس يعجبون بشعري. ثم يقول كارنيجي: «أراهن أن ذلك الموظف ذهب لتناول الغداء حالما، وأراهن أنه عاد إلى بيته وأخبر زوجته بذلك، وأنه نظر في المرآة وقال: «إن شعري جميل»[٢].

---

(١) دايل كارنيجي، كيف تكسب الأصدقاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص ١٥.

(٢) دايل كارنيجي، كيف تتعامل مع الناس، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١٥.

يقول البرفسور «هاري أوفرستريت» في كتابه الشهير (التأثير بالتصرف الإنساني): «ينبع العمل مما نرغب به أساساً، وأفضل نصيحة يمكن أن تعطى لمن يحاول الإقناع في العدل أو البيت أو المدرسة أو في السياسة، أولاً: ولّد في الشخص الآخر رغبة جامحة، فمن يستطيع ذلك يمتلك العالم ومن لم يستطع يسير الدرب وحيداً»[١].

إنّ من الأهداف الرئيسة للتشجيع والمدح والثناء هو إثارة روح التنافس والتحدي واستنفار الهمم واستفزاز الحماس عند الأفراد. يذكر دايل كارنيجي في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء): أن تشارلز شواب كان لديه مديراً لم يكن عماله يقومون بالأعمال المتوجبة عليهم، فسأله شواب: «كيف لا يمكن لرجل قدير مثلك إدارة العمال وتسيير العمل كما يجب؟! «فأجابه الرجل: لست أدري لقد عاملتهم بلطف وحثثتهم على العمل؟ ثم شتمتهم وأنذرتهم بالطرد، ولكن لم ينفع شيء معهم، فهم لا يريدون الإنتاج. وصدف أن كانت نهاية اليوم وقبل هبوط الليل قال له شواب: «اعطني قطعة من الطبشور ثم التفت إلى أقرب عامل منه وسأله: «كم هو عدد القطع التي تمّ إنتاجها اليوم؟ فأجابه: «ست قطع»، ودون التلفظ بأية كلمة رسم شواب رقم (٦) على الأرض وخرج.

وعندما جاء الليل رأى العمال رقم (٦) مكتوباً على

---

(١) دايل كارنيجي، كيف تتعامل مع الناس، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٥، ص٨٨.

الأرض، وسألوا عمال النهار: ماذا يعني هذا الرقم؟ فأجاب عمال النهار: «لقد كان المدير اليوم هنا وسألنا كم قطعة أنتجنا فأخبرناه أن عدد القطع هو ست، فكتب عددها على الأرض.

وفي الصباح التالي جاء شواب وأخذ يتجول في المصنع فوجد عمال الليل قد مسحوا رقم (٦) وكتبوا رقم (٧) بحجم كبير، وعندما تسلم عمال النهار رأوا رقم (٧) مكتوباً بالحجم الكبير، فانكب عمال النهار على العمل بحماس، وعندما غادروا المصنع تركوا وراءهم رقم (١٠) بحجم كبير، وسرعان ما بدأ المصنع ينتج أكثر من جميع مصانع المنطقة بعد أن كان يسير الإنتاج فيه بخطى متثاقلة، فأي مبدأ جرى تطبيقه هنا؟ فلندع تشارلز شواب يصفه في كلماته الخاصة حيث يقول: «إن الطريقة التي جرى فيها تسيير الأمور كانت إثارة روح التنافس، ولا أعني بذلك التنافس من أجل كسب المال بل الرغبة في التفوق»[١].

---

(١) دايل كارنيجي، كيف تكسب الأصدقاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٦٥.

١٣ لا تنفخ «البالونة» فتنفجر

بعض الناس يبالغون في مدح الآخرين والثناء عليهم حتى يصفونهم بما هم ليسوا بأهله، وهذا أمر مذموم ترفضه الفطرة السليمة.

إن ثمة فرق واضح بين التشجيع والثناء والمدح المتزن وبين النفاق والتملق والمجاملات الخادعة والمدح الكاذب المفرط فيه، فالأول فيه قدر كبير من النقاء والصدق والإخلاص والمحبة في حين أن الثاني فيه قدر كبير من الكذب والخداع والانتهازية البغيضة.

إن الناس لا تحترم ولا ترغب في التعامل مع من يمارس النوع الثاني من المديح، بل تعتبره شخصاً كاذباً، مخادعاً، منافقاً، انتهازياً، وهو في نظرهم محتقر في الغالب.

«إنّ مدح الناس والإكثار منه ربما يكون مدرجة إلى الكذب، والمسلم يجب أن يحاذر حينما يثني على غيره، فلا يذكر إلا ما يعلم من خير، ولا يجنح إلى المبالغة في تضخيم المحامد وطي المثالب، ومهما كان الممدوح جديراً

بالثناء فإن المبالغة في إطرائه ضرب من الكذب المحرم.

هناك فريق من الناس يتخذ المدائح الفارغة بضاعة يتملق بها الأكابر، ويصوغ من الشعر القصائد المطولة، ومن النثر الخطب المرسلة، فيكيل الثناء جزافاً، ويهرف بما لا يعرف، وربما وصف بالعدالة الظلمة الجائرين، ووصف بالشجاعة الأغبياء الخوارين، ابتغاء عرض من الدنيا عند هؤلاء وأولئك. هذا الصنف من الناس أوصى الرسول ﷺ بمطاردتهم حتى يرجعوا من تزويرهم بوجوه عفّرها الخزي والحرمان، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثوا في وجوه المداحين التراب.

وروى الإمام مسلم عن المقداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احثوا التراب في وجوه المداحين».

وقد ذكر شراح الحديث، أن المداحين المعنيين في الأحاديث سالفة الذكر هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، يستأكلون به الممدوح، فأما من مدح على الأمر الحسن والفعل المحمود ترغيباً في أمثاله وتحريضاً للناس على الاقتداء به، فليس بمداح»[1].

إنّ للإفراط في المديح آفات ست، الأربعة الأولى تخص المادح، والباقية تخص الممدوح، وهي:

---

(١) محمد الغزالي، خلق المسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧، ص ٤٠.

١ ـ قد يفرط المادح فينتهي به الأمر إلى الكذب، وقد قال خالد بن معدان (وهو تابعي ثقة، اشتهر بالعبادة، وتولى شرطة يزيد بن معاوية، توفي عام ١٠٤ هـ): «من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه».

٢ ـ قد يدخل الرياء إلى نفس المادح، حيث أنه بالمدح يظهر الحب، وقد لا يكون مُضمِراً له، ولا معتقداً لجميع ما يقوله، فربما يصير به مرائياً.

٣ ـ قد يقول المادح ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، وقد روي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال له الرسول ﷺ: «ويحك قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح»، ثم قال: «إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه، فليقل: أحسب فلاناً، ولا أزكي على الله أحداً، حسيبه الله، إن كان يرى أنه كذلك»(١). وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة، كقوله: إنه متق، وورع، وزاهد، وخير، وما يجري مجراه، فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل، ويتصدق، ويحج، فهذه أمور مستيقنة، ولا بأس بذكرها.

٤ ـ إن المادح قد يُفرِح الممدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز، وقد قال الحسن: «من دعا لظالم بطول البقاء

(١) متفق عليه، عن أبي بكرة.

فقد أحب أن يُعصىٰ الله تعالى في أرضه». والظالم الفاسق ينبغي أن يُذَم ليغتم، ولا يُمدَح ليفرح.

٥ ـ قد يحدث في الممدوح كبراً وإعجاباً، وهما مهلكان. قال الحسن بن علي رضي الله عنه: «كان عمر رضي الله عنه جالساً ومعه الدرة، والناس حوله، إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا (الجارود) منه (أي من عمر) خفقه بالدرة، فقال الجارود: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: ما لي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطىء منك».

٦ ـ إذا أثنى على الإنسان بالخير فرح به، وربما فتر عن العمل ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشميره للخير، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، ولهذا قال الرسول ﷺ للمادح: «ويحك قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «المدح هو الذبح»، لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور. وقال مطرف: «ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي». وقال زياد بن أبي مسلم: «ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن

يراجع». وعلق عبد الله بن المبارك رحمه الله على كلام مطرف وزياد فقال: «لقد صدق كلاهما، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص»[١].

من هنا ينبغي للإنسان أن لا يتمادى في المدح، لا سيما المدح الكاذب. كما ينبغي للممدوح أن لا يغره مدح المادحين، وأن يدرك حقيقة نفسه وما فيها من العيوب والنقائص، وأن يحفظها من أن يدخلها عجب أو رياء أو نفاق.

كما أن على الممدوح أن يظهر كراهيته لهذا المدح، فقد مدح بعض الناس أحد الصالحين فقال: «اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني وأنت تعرفني».

ومدح رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر: «أتهلكني وتهلك نفسك؟».

وقال علي بن أبي طالب لما أثنى عليه: «اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون». ومُدح أحد الصالحين فقال:

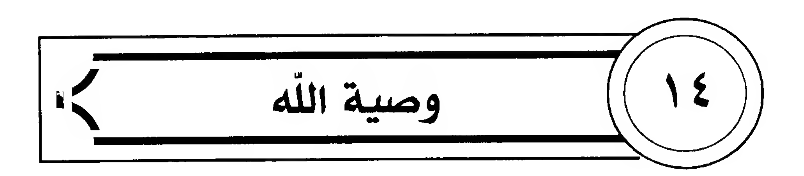
يظنون بي خيراً وما بي من خير
ولكنني عبد ظلوم كما تدري
سترت عيوبي كلها عن عيونهم
وألبستني ثوباً جميلاً من الستر

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

فصاروا يحبوني وما أنا بالذي
يُحَب ولكن شبهوني بالغير
فلا تفضحني في القيامة بينهم
وكن لي يا مولاي في ساعة الحشر

نعم، من عرف حقيقة نفسه، ذل لخالقه، فلم يضره مدح، ولم يطغيه ثناء، وقد قال سفيان بن عيينة: «لا يضر المدح من عرف نفسه».



١٤ وصية الله

في سورة الأنعام، أوصى الله تعالى عباده بوصايا نفيسة جليلة، نظم الله بها علاقة العبد مع خالقه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، فكان من بين هذه الوصايا الكريمة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

إن بالعدل والمساواة تطمئن القلوب، وتأمن النفوس، ومن يتصف بهما فقد ملك قلوب الناس ومحبتهم، وصار بينهم مهاباً محترماً، ومطاعاً متبعاً.

إن مجال العدل والمساواة واسع كبير، فهما مع الأبناء في البيت، ومع الموظفين في العمل، ومع التلاميذ في المدرسة، ومع الزوجات في المعيشة، ومع كل من تقوم بدعوتهم وتربيتهم. كذلك فإن العدل والمساواة يكونان في التعامل والإنفاق، وفي الابتسامة والثناء، وفي التقريب والإبعاد، وفي التقديم والتأخير، وفي الثواب والعقاب،

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

وفي التعليم والتوجيه، بل وفي النظرة والإشارة.

إن أشد ما يؤذي المرء أن يجد الآخرين، لا سيما أساتذته ومربيه، لا يساوونه مع غيره وبالأخص مع أقرانه أو مع من هم دونه، فتكون النتيجة أن هذا الشخص يحقد (في كثير من الأحيان) على مربيه وعلى من فضلوهم عليه.

يروي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالىٰ؟!» ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما هلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد! وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

يقول عبد القادر عودة رحمه الله: «جاءت الشريعة الإسلامية من وقت نزولها بنصوص صريحة تقرر نظرية المساواة وتفرضها فرضاً، فالقرآن يقرر المساواة ويفرضها على الناس جميعاً في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[(١)].

والرسول ﷺ يكرر هذا المعنى في قوله: «الناس سواسية

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». ثم يؤكد هذا المعنى تأكيداً في قوله: «إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم، فالناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم».

ويلاحظ من هذه النصوص أنها فرضت المساوة بصفة مطلقة، فلا قيود ولا استثناءات، وأنها المساواة على الناس كافة، أي على العالم كله، فلا فضل لفرد على فرد، ولا لجماعة على جماعة، ولا لجنس على جنس، ولا للون على لون، ولا لسيد على مسود، ولا لحاكم على محكوم»[(١)].

نعم، لقد أوجب الله العدل والمساواة وجعلهما الأساس الذي تقوم عليه البشرية، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[(٢)].

ويقول تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)].

ويقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[(٤)].

---

(١) عز الدين بليق، منهاج الصالحين، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨.

ولقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى في مواقف كثيرة وأحاديث عدة، ففي الحديث الذي يرويه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». ويقول كذلك: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»[١].

ولقد ضرب لنا السلف رضوان الله عليهم أمثلة سامية في مساواتهم بين الناس وعدلهم معهم، فكان لهذا الخلق أثر كبير في محبة الناس لهم، بل في الدخول في دين الله أفواجاً.

روي أنه لما توجه علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صفين، افتقد درعاً له، فلما انقضت الحرب ورجع إلى الكوفة وأصاب الدرع في يد يهودي، فقال لليهودي: الدرع درعي، لم أبع ولم أهب، فقال اليهودي: درعي وفي يدي، فقال علي: نسير إلى القاضي، فتقدم علي رضي الله عنه فجلس إلى جنب شريح القاضي، وقال: لولا أن خصمي يهودي لاستويت معه في المجلس، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصغروهم من حيث أصغرهم الله»، فقال شريح: قل يا أمير المؤمنين، فقال: نعم، هذه الدرع التي في يد هذا اليهودي درعي، لم أبع ولم أهب، فقال شريح: أيش تقول يا يهودي؟

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

قال: درعي وفي يدي، فقال شريح: ألك بينة يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعي، فقال شريح: شهادة الابن لا تجوز للأب، فقال علي: رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحسن والحسين سيدا أهل الجنة»[(١)]، فقال اليهودي: أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه قضى عليه! أشهد أن هذا هو الحق، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن الدرع درعك[(٢)].

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن محمد بن كعب القرظي قال: دعاني عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال: صف لي العدل، فقلت: بخ! سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أبا، ولكبيرهم ابنا، وللمثل منهم أخا، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن لغضبك سوطا واحداً، فتعد من العادين[(٣)].

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن صالح، قال: كتب أبو جعفر المنصور إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة فقال:

---

(١) رواه أحمد في المسند والترمذي عن أبي سعيد، والطبراني في الكبير عن عمر.

(٢) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، غير مبين الناشر ولا سنة الطبع، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤٣.

انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر، فادفعها إلى القائد، فكتب إليه سوار: إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر، فلست أخرجها من يده إلا ببينة، فكتب إليه المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد، فكتب إليه سوار: والله الذي لا إله إلاّ هو لا أخرجتها من يد التاجر إلا بحق، فلما جاءه الكتاب، قال: ملأتها، والله، عدلاً، وصار قضاتي تردني إلى الحق[١].

وحُكي أن أبا يوسف رحمه الله ابتلى بالقضاء، فقال يوماً: لئن جرت في القضاء بين عباده إلا مرة واحدة فلا يغفر الله لي، ادّعىٰ يهودي على هارون الرشيد دعوىٰ، فأحضرت هارون باستدعاء اليهودي، فلما حضر هارون جلس عندي، فقمت وجلست في مكان أضخم، ثم قلت لليهودي: قم، واجلس حيث جلس خصمك، ولم أقل لهارون أجلس حيث جلس خصمك[٢].

وحدث مرة أن ولداً لعمرو بن العاص نازع شاباً قبطياً من المصريين في ميدان السباق في عهد ولاية عمرو على مصر، فضرب الشاب القبطي بالسوط، فأقسم القبطي ليشكونه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فلم يعبأ به ولد عمرو،

---

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، غير مبين الناشر ولا سنة الطبع، ص٢٦٥.

(٢) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٦٤.

بل قال له وهو يضربه: خذها وأنا ابن الأكرمين. فلما وصل الشاب القبطي إلى عمر رضي الله عنه وأخبره بما حدث له، أرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص وولده، فلما مثلا بين يديه، قال لهما بغضب: بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ثم التفت إلى القبطي، فأعطاه درته، وقال له: اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك. وبعد أن قضى الشاب لنفسه من خصمه قال له عمر رضي الله عنه: اعل بها رأس أبيه، فإنه إنما ضربك بسلطانه[١].

وروىٰ الإمام أبو يوسف في كتابه «الخراج»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل، وكان شيخاً ضريراً، يبدو عليه أنه ذمي، فضرب عمر بعضده، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، فقال: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، وأعطاه شيئاً مما عنده، ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفنا الرجل أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، والله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾[٢]، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ثم رد عنه الجزية وعن أمثاله[٣].

---

(١) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٠.

(٣) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٤.

وحكي عن أبي يوسف رحمه الله أنه أشهد عنده أمير من عظماء جيش أمير المؤمنين هارون الرشيد، وكان من أقربائه، فلم يقبل شهادته، فشكا إلى هارون، فقال هارون: لم رددت شهادته؟ قال: لأني سمعته يوماً بين يديك يقول: أنا عبد أمير المؤمنين، فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد، وإن كان كاذباً فلا شهادة للكاذب، فقال هارون إن شهدت، فهل تقبل شهادتي؟ قال: لا، فقال: ولم؟ قال: لأنك تتكبر على الله فلا تخرج إلى الجماعة، ولا تصلي مع عامة المسلمين، وهذا تكبر على الله، ولا يليق بالعبد هذا. فتاب هارون على ذلك، واتخذ مسجداً للعامة على بابه، وكان يخرج إليه عند كل صلاة[١].

ويروي الإمام مالك في الموطأ عن يحيى بن آدم قال: أنه كان للضحاك بن خليفة الأنصاري رضي الله عنه أرض لا يصل إليها الماء إلا إذا مر ببستان لمحمد بن مسلمة، فأبى محمد هذا أن يدع الماء يجري بأرضه، فشكاه الضحاك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستدعىٰ عمر محمد بن مسلمة وقال له: أعليك ضرر في أن يمر الماء ببستانك؟ قال: لا، فقال له: والله لو لم أجد له ممراً إلا على بطنك لأمررته[٢].

وروي أنّ جبلة بن الأيهم الملك الغساني دخل في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعندما جاء

---

(١) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٣.

موسم الحج حضره ثم خرج يطوف بالكعبة، فوطىء على إزاره رجل من بني فزارة فحله، فكبر الأمر على جبلة، فلطم الفزاري فهشم أنفه، فذهب الفزاري إلى أمير المؤمنين عمر يستعديه على جبلة، فلما سأل عمر رضي الله عنه جبلة عن الأمر، قال له هذا الأخير: ولولا حرمة البيت لأخذت الذي فيه عيناه، فقال عمر: أما إنك وقد أقررت فإما أن ترضيه وإلا أقدته منك، فقال جبلة: أنا ملك وهو سوقة، فقال له عمر: الإسلام سوى بينكما، فقال جبلة: إنني رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية، ثم قال: إذن أتنصر، فقال عمر: إذن أضرب عنقك[1].

وروىٰ الإمام شمس الدين الذهبي في «تاريخ الإسلام»: أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما رجع من بعض الغزوات، وقد ابتاع من الغنيمة بأربعين ألف درهم، فلما قدم على أبيه أنكر عليه ما فعل، لأنه خشي أن يكون أمير الجيش قد باع له بأرخص مما يبيع لغيره رعاية لصلة رحمه بأمير المؤمنين، فقال لأبيه: إني أتجر كما يتجر غيري من تجار قريش، فقال له عمر: إني قاسم مسؤول، وإني معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش، لك ربح الدرهم درهم، ثم عرض ما اشتراه ابنه من الغنيمة على التجار، فاشتروه بأكثر من ثمانين ألف، فأعطاه

---

(١) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٥.

ثمانين ألف درهم، ودفع الباقي إلى بيت مال المسلمين[١].

وحدث محمد بن سعد عن عامر الشعبي: أن ابناً لشريح القاضي قال لأبيه: إن بيني وبين قوم خصومة، فانظر، فإن كان الحق لي، خاصمت، وإن لم يكن لي الحق لم أخاصم، فقص قصته عليه، فقال شريح: انطلق فخاصم، فانطلق إليهم، فتخاصموا إليه، فقضى على ابنه، فقال له لما رجع إلى أهله: والله لو لم أتقدم إليك لم ألمك، فقال: والله يا بني، لأنت أحب إلي من ملء الأرض مثلهم، ولكن الله أعز علي منك، خشيت أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم ببعض حقهم[٢].

وشكى يهودي علياً رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، فلما مثلا بين يديه خاطب عمر بن الخطاب اليهودي باسمه بينما خاطب علياً بكنيته، فقال له: يا أباالحسن، فظهر أثر الغضب على وجه علي فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمْثل معه أمام القضاء، فقال: لا، ولكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه فخاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي[٣].

(١) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧١،
(٣) المصدر السابق، ص٢٧٧.

ويروىٰ أنّ الخليفة المأمون بن هارون الرشيد كان يجلس للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذات يوم من مجلس نظره، فلقيته امرأة في ثياب رثة، فقالت:

يا خير منتصف يهدي له الرشد
ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد الملك أرملة
عدا عليها فما تقوىٰ به أسد
فابتز منها ضياعاً بعد منعتها
لما تفرق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون يسيراً ثم رفع رأسه وقال:

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد
وأقرح القلب هذا الحزن والكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي
واحضري الخصم في اليوم الذي أعد
المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا
أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت وحضرت يوم الأحد في أول الناس، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو، فزجرها

بعض حجابه فقال له المأمون: دعها، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، وأمر برد ضياعها عليها[١].

وروي كذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل مع رجل على قاضي المدينة زيد بن ثابت رضي الله عنه ليحتكما إليه، فقام زيد تعظيماً لعمر، وقال: إلى هنا يا أمير المؤمنين، فقال عمر: هذا أول الجور في حكمك، بل أجلس هنا إلى جانب خصمي، ولما قضى المجلس وخرج قال: والله لا يدرك زيد القضاء ـ أي لا يكون أهلاً له ـ حتى يكون عنده عمر وأضعف رجل في المسلمين سواء.

وجاءت برود من اليمن فوزعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المسلمين برداً برداً وخرج عمر في بردين يخطب في الناس فقال: اسمعوا وأطيعوا، فقام أعرابي وقال: والله لا نسمع والله لا نسمع، وزعت على الناس برداً برداً وخرجت تخطب في بردين، فقال عمر: عجلت عليَّ أيها الرجل، أين ولدي عبد الله؟ فقال ها أنذا يا أمير المؤمنين، قال لمن أحد هذين البردين اللذين علي؟ قال: لي يا أمير المؤمنين، فقال عمر للرجل: إني استعرت برد ولدي عبد الله ليكون مع بردي عليّ حُله، فقال الأعرابي: أما الآن فالسمع والطاعة[٢].

---

(١) نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة في حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٢) أحمد عز الدين البيانوني، من محاسن الإسلام، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١١٣ ـ ١١٧.

ما تمّ ذكره سالفاً هو بعض الأمثلة على عدل المسلمين ومساواتهم بين الناس، ولكن مما يحسن التنويه إليه في هذا المقام أنّ الدعوة إلى العدل والمساواة لا تعني المساواة في المحبة القلبية ولا العدل في الميل النفسي، فهذا ليس في طاقة البشر، كما أخبر بذلك الله عزّ وجلّ في حق الزوجات، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾[١].

إن هوى الإنسان وميله وقلبه هي أمور لا سلطان له عليها، لذا فهو غير مؤاخذ إن لم يوفق إلى العدل فيها، وإنما المطلوب منه أن يعدل في النفقة وفي المنام والبيات، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم هذا جهدي فيما أملك، ولا طاقة لي فيما لا أملك»[٢].

وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نساء النبيّ إليه، ورغم ذلك فإن الرسول ﷺ لما كان في مرض موته لم يجلس عند عائشة ليطبب إلا بعد أن استأذن جميع نسائه في ذلك، فأذن له.

وهناك أمر آخر نود الإشارة إليه وهو أن المساواة ليست بالضرورة أن تطبق بحذافيرها فيما يتعلق بموضوع السلطة والمسؤولية، إذ أن للناس قدرات ومهارات وإمكانات متفاوتة،

(١) سورة النساء: الآية ١٢٩.

(٢) رواه أصحاب السنن وابن حبان.

فعلى قدر إمكانات المرء ومواهبه يكلف من المسؤوليات ويعطى من الصلاحيات والسلطات.

كما أن الذي يحسن ينبغي أن يثاب فلا يعامل كما يعامل المقصر المخطىء ولا يساوىٰ به كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾[2].

ولا يجوز للمسلم أن يظلم غير المسلم لا سيما عند التقاضي، ولا ينبغي له أن يسيء معاملته لا سيما إذا لم يكن محارباً، ولكن لا يعني ذلك أن يُعطىٰ جميع الحقوق التي تعطى للمسلم. إنّ العلماء لم يجيزوا أن يتولى غير المسلم المناصب العليا في الدول الإسلامية، وذلك لأن الأصل في غير المسلم أنه غير مؤتمن، كما أنه لا يجوز أن نرفع من أذله الله بالكفر، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة القلم: الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) سورة السجدة: الآيات ١٨ ـ ٢٠.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٨.

١٥ قال: اطلب لها رُجيل

روي أنّ رجلاً قال لصاحبه: أريدك في شغيل، فقال صاحبه: اطلب لها رجيل. بمعنى أن صاحب الهمة العالية يبحث دائماً عن معالي الأمور ويبتعد عن سفسافها، فلا يضيع وقته في التوافه، لأن التوافه كثيرة ولا تنتهي.

ومن هنا يجب على المرء أن يحرص وهو يتعامل مع الناس على حفظ وقته وتوجيهه بحيث ينجز فيه الأعمال النافعة المفيدة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وليعلم أن طلبات الناس وحاجاتهم ورغباتهم لا تنتهي، ولذا ينبغي أن ينتقي منها أفضلها وأكثرها نفعاً لهم في الدنيا والآخرة.

إنّ الإمام ابن الجوزي رحمه الله كان يأتيه أحياناً في مجلسه بعض البطالين، فأرغى النفوس والعقول، ليتحدثوا معه بأحاديث لا تغني ولا تسمن من جوع فيقول عنهم: «فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد (القراطيس)، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع

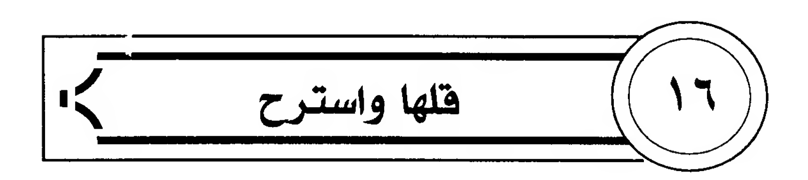
شيء من وقتي»[١].

إنّ ما نريد أن نوضحه هو أن من الأخطاء السائدة عند كثير من الناس هو اعتقادهم أنّ كسب قلوب الناس ومودتهم يحتم عليهم الاستجابة لجميع مطالبهم، والتفرغ لتلبية كل حاجاتهم، ومجالستهم لفترات طويلة من ليل أو نهار، ولا شك أنّ هذا مجانباً للصواب لا سيما مع أولئك الذين لا هدف لهم، ولا فائدة من معاشرتهم.

لذا يحسن بالمسلم أن يوجه وقته وطاقته إلى كل أمر هام، ولا يبدده في التوافه من الأمور والصغائر من الأعمال. إننا حقاً نريد رجالاً كراماً، تسمو نفوسهم وتعلو هممهم للقيام بعظائم الأمور وكرائم الأعمال، وصدق المتنبي إذ يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص ٢٢٧.



١٦ قلها واسترح

إن الاعتراف بالحق مكرمة وفضيلة، والإصرار على الخطأ منقصة ورذيلة، وقد أثنى الله تعالى على أولئك الذين يعترفون بأخطائهم وتقصيرهم ولا يصرون عليها، فقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

وذم الله الذين يصرون على كفرهم وتقصيرهم وعصيانهم وخطئهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾[2].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢) سورة الجاثية: الآيتان ٧ ـ ٨.
(٣) سورة الواقعة: الآيات ٤١ ـ ٤٦، والحنث هو الذنب المؤثم.

عندما يعترف الإنسان بخطئه فإنه يقي نفسه الحرج المترتب على الإصرار على الخطأ. كما أن من طبيعة الإنسان السوي أنه يقبل معاذير المعتذرين، خاصة إذا رافق هذا الاعتذار انكسار وأسف وألم. ومن هنا فإن الاعتراف بالخطأ خير من الإصرار عليه وتبريره، والذي (غالباً) لا يخلو من الكذب، وسوف يتم اكتشاف هذا الكذب يوماً من الأيام مهما حاول الإنسان التخفي والالتواء، لذا يقول الشاعر:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفىٰ على الناس تُعلم

لا بد أن يعي المرء القاعدة التي تقول: «لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار». ونود أن نذكر بأن الاعتذار في الدنيا خير وأكرم من الاعتذار في الآخرة إذ لا ينفع الاعتذار آنذاك، وأن الاعتراف بالخطأ وتحمل المسؤولية من صفات الرجال الكرام، كما أنه دليل على الشجاعة.

هذا بالإضافة إلى أن الراحة النفسية والسعادة والطمأنينة ستكون عاقبة الإقرار بالخطأ وعدم الاسترسال في التبريرات الملفقة. وفي هذا المقام نوصي بما يلي:

١ ـ قل الحق، وانطق بالصدق، وإياك والكذب وتبرير الخطأ.

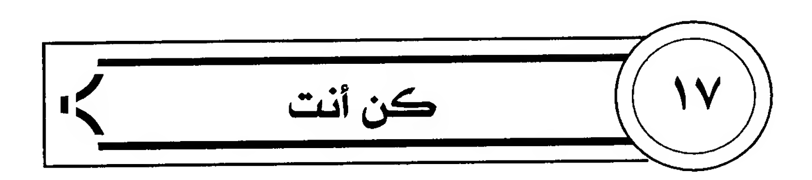
٢ ـ اختر الوقت المناسب للاعتذار والاعتراف بالخطأ.

٣ ـ اعتذر عن الخطأ بأدب، واختر الأسلوب المناسب، لا سيما الأسلوب العاطفي.

٤ ـ أكثر من الاستغفار، وادع الله أن يتقبل توبتك.

٥ ـ كن واسع الصدر، فلربما تسمع كلمة جارحة ممن أخطأت في حقه وجئته معتذراً، فهذه ضريبة الزلة والخطأ.

٦ ـ حاول أن تكفر عن خطئك بالإحسان إلى من أخطأت في حقه، وبالدعاء له.



جرت العادة على أنّ الناس لا تحترم من لا تكون له شخصية مستقلة، بل تستهجن وتحتقر الإمَّعي الذي لا هم له إلا تقليد الآخرين، إن أحسنوا أحسن، وإن أساؤوا أساء.

فإذا أردت كسب قلوب الآخرين واحترامهم فكن أنت، إذ أن الإمَّعية مذمومة في الأمور كلها، ولذا ورد في الحديث الصحيح أن العبد عندما يسأل في القبر فيقال له: «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري كنت أقول كما يقول الناس، فيضربانه بمطرقة من حديد لو اجتمعت الجن والإنس على أن يقلوها ما استطاعوا، فيشتعل عليه قبره ناراً فيصير رماداً»[1].

ولا يعني هذا الكلام عدم الاستفادة من تجارب الآخرين، ولكن المقصود هو الابتعاد عن التقليد الأعمى الذي لا تراعى فيه الظروف والأحوال والأشخاص والأمكنة والأزمنة.

---

(١) متفق عليه.

ومن المهم كذلك أن لا يخالف الإنسان طبيعته التي فطره الله عليها، فلا ينقلب الرجل إلى امرأة في سلوكه وتصرفاته وكلامه وأخلاقه، ولا تتحول المرأة إلى رجل فتعيش مترجلة بلا أنوثة ولا حياء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء» وفي رواية: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»[١].

وروىٰ أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل».

وروىٰ الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا». قيل: إن معنى «كاسيات عاريات» أي تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهاراً لجمالها أو تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون يصف لون بدنها، ومعنى «مميلات مائلات» أي مائلات

---

(١) رواه البخاري.

يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن، ومعنى «رؤوسهن كأسنمة البخت» أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوه[١].

ومن جانب آخر لا يليق بالبدوي أن يتكلف تغيير طبيعته وكلامه ليكون كالحضري، ولا يحسن بالحضري أن يتصنع تغيير طبيعته وكلامه ليكون كالبدوي إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً، فكل إنسان بطبيعته وفطرته وكلامه محترم.

أما إذا تصنع التغيير دون حاجة (خاصة إذا لم يكن الذي هو عليه سيئاً أو مخالفاً للدين والفطرة السليمة) فإن هذا التصنع لن يكون في صالحه، ولن يستمرئه الآخرون، وربما يضع نفسه موضع السخرية والاستهزاء والتهكم، وكل ذلك يؤثر سلباً على قوة شخصيته أمام الآخرين واحترامهم له وحبهم إياه. لذا فالأمر يحتاج إلى تعقل حذر، وإلى اجتناب تقليد الآخرين دونما وجود سبب حقيقي وجيه، ومن هنا نكرر فنقول: كن أنت.

---

(١) يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٩٨٣، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

١٨ من سقطت كلفته دامت ألفته

بمعنى أن لا تتكلف للآخرين وتحمِّل نفسك ما لا تطيق، وكذلك لا تكلف الآخرين ما يشق عليهم من الأعباء والواجبات والهموم، فلا تضطرهم إلى تكلف المجاملة والتواضع والتفقد لأحوالك والقيام بحقوقك.

يقول جعفر بن محمد الصادق: «أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي».

وقيل لبعضهم: من نصحب؟ قال: «من يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ».

وقال الجنيد: «ما تواخىٰ اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعلة في أحدهما».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «شر الأصدقاء من تكلف لك، ومن أحوجك إلى مداراة، وألجأك إلى اعتذار».

وقال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهم

أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه»[١].

وقيل كذلك: «من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن خفت مؤنته دامت مودته».

وقال بعضهم: «إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تمّ أنسه به: إذا أكل عنده، ودخل الخلاء، وصلى، ونام».

وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك، إذ يقول أحدهم لصاحبه: «مرحباً وأهلاً وسهلاً»، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا، ولك عندنا سهولة في ذلك كله، أي لا يشتد علينا شيء مما تريد[٢].

ولكن مع أهمية تجنب التكلف والتكليف، إلا أنه ينبغي أن يُفهم هذا الأمر دون إفراط، إذ أن بعض الناس بحجة المباسطة والمؤانسة وعدم التكلف يقوم ببعض الممارسات التي لا تليق بالرجال، كأن يتصارع مع صاحبه أمام الناس، أو يستخف به ويستهزىء بكلامه أمام من يود أن يبقى في نظرهم مهاباً مقدراً، أو يستخدم البذيء من الكلام والفاحش من القول، أو غيرها.

إن هذا السلوك ليس من خلق من يود أن يحفظ ود أخيه ومحبته، ولذا يمكن أن نقول إنه لا يليق أن تسقط الكلفة تماماً، أو بمعنى أدق ينبغي أن يعرف المرء حدود عدم التكلف ففي ذلك خير له ولصاحبه.

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٢، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧٤.

١٩ من كان له صبي فليتصاب له

كل إنسان يمر في حياته بمراحل متعددة، ولكل مرحلة طبيعتها المميزة، فالطفل له طبيعة تختلف عن طبيعة الشاب، وطبيعة الشاب تختلف عن طبيعة الشيخ المسن، والرجل تختلف طبيعته عن طبيعة المرأة، وهكذا. ولذا يجب على الإنسان أن يتعامل مع الآخرين بما يتناسب وطبيعة مرحلتهم، بل يجب عليه أن يترك الآخرين يعيشون مرحلتهم، فالطفل يحتاج إلى إشباع حاجة اللهو واللعب، والمرأة تحتاج إلى التدليل، والوالدان يحتاجان إلى البر.. إلخ.

من الأخطاء التي يرتكبها بعض الناس أنهم يريدون من الطفل أن يكون رجلاً فيترك اللعب واللهو، ومن المرأة أن تتعامل بخشونة وكأنها رجل، وكل ذلك لا يصح لأنه مخالف للطبيعة والفطرة البشرية، وقد يتسبب في نشأة الإنسان نشأة غير سوية، وربما لا يظهر ذلك إلا بعد حين، وصدق المتنبي:

فإن الجرح ينغر بعد حين

إذا كان البناء على فساد

لقد كان رسول الله ﷺ يلعب مع الأطفال ويمازحهم، فقد ثبت في الصحاح أن رسول الله ﷺ قبّل ابنه إبراهيم وشمّه، وأنه تأخر في السجود تأخراً ملحوظاً فلما سئل عن السبب بعد الصلاة قال: «إن ابني ارتحلني وأنا ساجد فكرهت أن أعجله»، وكان الذي فعل ذلك هو الحسن ابن ابنته فاطمة. كما ثبت أنه كان يضع الطفل في حجره حتى يبول عليه ثم يرش موضع البول بالماء، وثبت أنه حمل أميمة بنت ابنته زينب على عاتقه وهو يصلي(١).

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبل النبيّ ﷺ وقد حمل الحسن على رقبته، فلقيه رجل فقال: نعم المركب ركبت يا غلام! فقال رسول الله ﷺ: «ونعم الراكب هو».

وأخرج ابن سعد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: كان رسول الله ﷺ يدلع لسانه - أي يخرجه - للحسن بن علي، فإذا رأى الصبي حمرة اللسان يهش إليه، أي يسر وتنبسط أساريره.

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: أشبه أهل النبيّ ﷺ وأحبهم إليه الحسن بن علي، رأيته يجيء وهو ساجد فيركب رقبته - أو قال ظهره - فما ينزله حتى

(١) حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٣، ص ٢٤٢.

يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر.

ويروي ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن جبلة بن سحيم قال: دخلت على معاوية بن أبي سفيان ـ وهو في خلافته ـ وفي عنقه حبل، وصبي يقوده، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أتفعل هذا؟! قال: يا لكع، اسكت، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان له صبي فليتصاب له»، وقال ابن عساكر: غريب جداً[1].

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، غير مبين الناشر ولا سنة الطبع، ص ١٨٩ ـ ٢٠٢.

٢٠ الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف

الناس يتباينون في علاقاتهم مع الآخرين، فنفر منهم - وهم الأقل - لديهم شبكة واسعة ومتشعبة من العلاقات، أينما ذهبوا وجدوا لهم أصحاباً وأحباباً. ونفر آخر - وهم الأكثر - ليس لديهم سوى علاقات محدودة مع نفر قليل.

ولعل من أهم الأسباب في ذلك، أن الصنف الأول لديهم رغبة جموحة في التعرف على الآخرين وإقامة علاقات وطيدة معهم، لذا فهم يبادرون دائماً إلى التعرف، بل ويصطنعون المواقف والأحداث لا لشيء إلا لتكوين هذه العلاقات. أما الصنف الآخر فهم أولئك الذين ينتظرون من الآخرين أن يبادروا ليتعرفوا عليهم، ولو بادر الآخرون فلربما لم يجدوا في أنفسهم الرغبة في مقابلتهم بمبادرة أخرى لتعميق هذه العلاقة.

إنّ الإقدام والمبادرة خلق كريم، وصفة جليلة، يتصف بها أصحاب الهمم العالية والنفوس الأبية، لذا يقول الشاعر:

فالجبن عار وفي الإقدام مكرمة
والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقال آخر:

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وقد أبان الرسول ﷺ سر تآلف الأرواح، فقال في الحديث الذي يرويه الإمام البخاري: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصل للمودة»[١].

وقديماً قالوا: «رب أخ لك لم تلده أمك».

وكان الإمام أحمد بن حنبل يسمع بالرجل الصالح فيبادر إلى التعرف عليه وربما يسافر في سبيل ذلك.

وكان الإمام حسن البنا يحرص على التعرف على جميع من يلقاه، فكان يقف وهو في طريقه عند رجل المرور فيتعرف عليه ويعرفه بدعوته، وكان لهذه العلاقات أثر بالغ في انتشار دعوته.

وهكذا ينبغي أن يكون شأن كل صاحب دعوة، إذ لا ينتظر من المدعو أن يأتي إليه، بل ينطلق هو مبادراً إليه، وصدق الله العظيم حينما قال في مؤمن آل ياسين: ﴿وَجَآءَ مِنْ

(١) رواه الترمذي.

أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

إن المبادرة بالتعرف على الآخرين تحتاج إلى عدة أمور من أهمها ما يلي:

١ ـ الاقتناع بأهمية التعارف والحاجة إليه والأجر والثواب المترتب عليه.

٢ ـ الجرأة وعدم التردد.

٣ ـ الثقة بالنفس.

٤ ـ معرفة طباع من يراد التعرف عليه.

٥ ـ حسن الاستفادة من الفرص والمواقف والأحداث.

٦ ـ ترك الخجل والانطوائية والحساسية المفرطة والحرج المبالغ فيه.

٧ ـ حسن الاستهلال، بمعنى أن يحسن المرء كيفية البدء بالحديث مع من يريد التعرف عليه.

وهناك وسائل عديدة وطرق متنوعة يمكن بها التعرف على الآخرين، ومن هذه الوسائل ما يلي:

١ ـ الاستفادة من المناسبات المختلفة للتعرف، مثل: حفلات الزواج والعزاء والأعياد وغيرها.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٠.

٢ ـ الاستفادة من الفرص المتاحة للاجتماع بالآخرين، كأماكن العمل، وفي الاجتماعات واللجان، وكذلك في المدارس والجامعات، وغيرها.

٣ ـ المسجد وسيلة جيدة للتعرف، لا سيما في رمضان وأثناء الاعتكاف وفي الجمع وأثناء المحاضرات.

٤ ـ اصطناع المواقف والأحداث، كأن تتعمد الجلوس بالقرب من أحد الناس وتسأله: هل تعرف فلاناً؟ أو هل تعمل في المؤسسة الفلانية؟ أو غيرها.

٥ ـ زيارة المرضى في المستشفيات والتعرف عليهم.

٦ ـ الظهور للناس ومخاطبتهم في المحاضرات والمواعظ والخطب وإمامتهم في الصلوات.

٧ ـ الابتسامة والسلام من أفضل وسائل التعرف.

٨ ـ تقديم المساعدة للآخرين، خاصة فيما يتعلق بوظيفتك، ولو أن تتصنع هذه المساعدة ببعض الكلمات والحركات التي تشعرهم بحرصك على إنجاز معاملاتهم بسرعة وإتقان.

٩ ـ إبداء الرغبة بالتعرف صراحة إذا كان الظرف والموقف يسمح بذلك.

١٠ ـ التعرف عن طريق الآخرين، وذلك بزيارة المجالس التي يجتمع فيها الناس والاتفاق مع صاحب المجلس إن كان

معروفاً لديك بأن يعرفك على من تريد من الحاضرين.

١١ ـ السفر وسيلة جيدة للتعرف على الآخرين دون تكلف أو استهجان.

١٢ ـ يمكن التعرف على الأقارب والأرحام بسهولة ويسر.

١٣ ـ يمكن الاستفادة من الزوجات والأمهات والبنات وذلك بالتعرف على أقارب صديقاتهن.

١٤ ـ نصرة المظلوم، والوقوف مع الحق، وعدم التعاون مع الباطل، والصدق في القول، كلها وسائل تعرف الآخرين بك وتعرفك بهم.

هذه بعض الوسائل التي يمكن بها التعرف على الآخرين، وهناك وسائل أخرى كثيرة، ولكن ينبغي في الوسائل المستخدمة أن تراعىٰ فيها أمور مهمة منها:

١ ـ أن تكون الوسيلة شرعية، فلا كذب فيها ولا إيذاء ولا ترويع للآخرين.

٢ ـ أن تكون غير مصطنعة أو واضحة التكلف فينفر منها الآخرون.

٣ ـ أن تتناسب الوسيلة مع الزمان والمكان والظروف والأحداث، وكذلك تتناسب مع طبيعة من يراد التعرف عليهم.

٤ ـ أن يراعىٰ فيها التنويع والابتكار والتجديد، فالرتابة ممجوجة، والتكرار مملول.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة المتواضعة والتي تناولت فيها بعض قواعد وفنون التعامل مع الآخرين، لا يسعني إلا أن أتضرع إلى الله تعالى بأن يتقبل مني هذا الجهد، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، إذ لا خير في عمل لا إخلاص فيه، ولا بركة في جهد ينقصه توفيق المولىٰ عزّ وجلّ.

إنه مما لا شك فيه أنّ هناك قواعد أخرىٰ للتعامل مع الآخرين، وهي كثيرة متشعبة، لا يمكن حصرها في دراسة واحدة، ولا يستطيع مخلوق أن يزعم أنه أحاط بها علماً، إذ فوق كل ذي علم عليم.

وبالرغم من ذلك، فقد حاولت جمع ما أظنه مهماً، وإن كان في العمر بقية فإني أسأل الله تعالى أن ييسر لنا ذكر المزيد منها.

علي الحمادي

المراجع

- إبراهيم الجمل، جذور الشر.
- ابتسم أقل لك من أنت، غير مبين كاتب المقال، جريدة الخليج، العدد ٥٢٢٦، ١٩٩٣/٩/٢، الشارقة.
- ابن الجوزي، صيد الخاطر.
- ابن القيم الجوزية، عدة الصابرين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع.
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٢.
- أحمد الجدع، ألقاب الصحابة، مصادرها وقصصها وأهدافها، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٥.
- أسماء السيد إبراهيم، الاتصالات الإدارية، ورقة علمية مقدمة لبرنامج مهارات الإشراف والمتابعة الفعالة، معهد التنمية الإدارية، دبي، نوفمبر ١٩٩١.
- أحمد شوقي، الشوقيات، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.
- أحمد المحامدي، ، الحب بين العبد والرب، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ١٩٨٥.
- أحمد عز الدين البيانوني، من محاسن الإسلام، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٥.
- إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، ج٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧.
- أنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧.
- جاسم مهلهل الياسين، الأخوة، دار الدعوة، الكويت، ١٩٨٥.
- جمعة أمين، الدعوة قواعد وأصول، دار الدعوة، الإسكندرية، غير محدد سنة الطبع.
- جاسم المهلهل الياسين، العلم بين يدي العالم والمتعلم، الكويت.
- جاسم مهلهل الياسين، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت، ١٩٨٨.
- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، غير مبين الناشر ولا سنة الطبع.
- حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٣.
- الخطيب البغدادي، الكفاية.
- دايل كارنيجي، كيف تكسب الأصدقاء، دار مكتبة الهلال، بيروت، غير محدد سنة الطبع.
- زامل الزامل، المجموع المنتخب من المواعظ والأدب، راسم للدعاية والإعلان، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٦.
- زهير الكايد، ماهية السلوك الإداري والعلاقات السلوكية المتبادلة، ورقة علمية مقدمة لبرنامج المهارات السلوكية والإدارية للمديرين، ١٥ ـ ١٨/١٩/١٩٩٠، معهد التنمية الإدارية، أبو ظبي.
- العزلة والخلطة، أحكام وأحوال، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٩٩٣.
- سعيد حوىٰ، المستخلص في تزكية النفس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥.
- السيد سابق، فقه السنة، المجلد الثالث، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.

- سعيد حوىٰ، فصول في الإمرة والأمير، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٣.
- سعيد بن علي القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، مؤسسة الجريسي، الرياض، ١٩٩٢.
- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.
- شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج١، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٥٢.
- شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١.
- صالح أحمد الشامي، من معين السيرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤.
- عدنان الرومي وعلي الهزاع، نفائس الحلة في التآخي والخلة، جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي، دبي، غير محدد سنة الطبع.
- عوض رزق الله أحمد، العلاقات الإنسانية ودورها في إدارة المؤسسات، ورقة علمية مقدمة لبرنامج المهارات السلوكية والإدارية للمديرين، معهد التنمية الإدارية، أبو ظبي، سبتمبر ١٩٩٠.
- علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع.
- عبد الحميد محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.
- عبد الله ناصح علوان، كيف يدعو الداعية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ١٩٨٦.
- علي صالح الهزاع، أنيس الجليس، ج٢، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٨٧.
- علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٤.

- عبد الله بن أحمد النسفي، تفسير النسفي، ج٤، دار الفكر العربي، مصر، غير محدد سنة الطبع.
- علي بن حبيب الماوردي، تفسير الماوردي، ج٤، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٩٨٢.
- عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٩٨١.
- غسان حمدون، تفسير من نسمات القرآن، كلمات وبيان، دار السلام، دمشق، ١٩٨٦.
- طارق السويدان، المهارات الإدارية، شركة الإبداع الخليجي، الكويت، ١٩٩٣.
- فرهاد محمد الأهدن، فن وآداب علم التفاوض، مجلة الإدارة، اتحاد جمعيات التنمية الإدارية، القاهرة، العدد الأول، مجلد ٢٠، يوليو ١٩٨٧.
- فهد البدراني، آداب المجلس، مؤسسة الجريسي، الرياض، ١٩٨٩.
- محمد الغزالي، خلق المسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- محمد أحمد الراشد، الرقائق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧.
- محمد عفيف الزعبي، ديوان الشافعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣.
- محمد بن أحمد سيد أحمد، عشرون قصيدة في الزهد، الجزء الثاني، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ١٩٨٩.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، دار التحرير للطبع والنشر، مصر، ١٩٨٠.
- مصطفى السباعي، هكذا علمتني الحياة، القسم الأول، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤.
- محمد أحمد الراشد، العوائق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.
- محمد أحمد الراشد، صناعة الحياة، دار المنطلق، دبي، ١٩٨٩.
- محمد عفيف الزعبي، ديوان الشافعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣.

- محمد حسن الحمصي، قرآن كريم، تفسير وبيان، دار الرشيد، دمشق، غير محدد سنة الطبع.
- نذير محمد مكتبي، صفحات مشرقة من حياة السابقين، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢.
- نجيب خالد العامر، من أساليب الرسول في التربية، مكتبة البشرى الإسلامية، الكويت، ١٩٩٠.
- لحوم العلماء مسمومة، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٩٩١.
- وهبي سليمان غاوجي، أبو حنيفة النعمان، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- يوسف عبد الوهاب، الدافعية والحوافز، ورقة علمية مقدمة لبرنامج المهارات السلوكية والقيادية للمديرين، معهد التنمية الإدارية، أبو ظبي، ٢٣/٩/١٩٩٠.
- يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.
- يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧.
- يحيىٰ بن شرف النووي، رياض الصالحين، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٩٨٣.

الفهرس

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة



